غير مرخصة للطباعة

المحور الثالث

الفقه وأصوله
(فقه السلوك والأخلاق)

٧٩

التَّوَكُّل

الإمام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١، الأحزاب: ٣، ٤٨].

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ [الطلاق: ٣].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فجعل النبيُّ والنبيَّان يمرُّون معهم الرَّهْط، والنبيُّ ليس معه أحدٌ، حتَّى رُفِعَ لي سوادٌ عظيم، قلتُ: ما هذا؟ أُمَّتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومُه. قيل: انظر إلى الأفق! فإذا سوادٌ يملأ الأُفُق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا! في آفاق السَّماء، فإذا سوادٌ قد ملأ الأفق، قيل: هذه أُمَّتُك، ويدخل الجنَّة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب**». ثم دخل ولم يبيِّن لهم، فأفاض القومُ، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتَّبعنا رسولَه، فنحن هم، أو أولادنا الذين وُلِدُوا في الإسلام، فإنَّا وُلِدْنا في الجاهليَّة، فبلغ النبيَّ ﷺ، فخرج، فقال: «**هم الذين لا يسترقُون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوُون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون**». متَّفق عليه.

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطيرَ، تغدو خِماصًا، وتروح بِطانًا**». رواه أحمد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أَعْقِلُهَا وأتوكَّل، أو أُرْسِلُها وأتوكَّل؟ فقال ﷺ: «**اعقِلْها وتوكَّلْ**». رواه التِّرْمذي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجْهِه، وعظيم سلطانه، لا نبغي غيره ربًّا، ولا نتَّخذ غيره وليًّا، ولا نبتغي غيره حَكَمًا، ولا نشرك به ولا معه أحدًا ولا شيئًا، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيَّاه، مُخْلِصِين له الدِّينَ ولو كره الكافرون.

وأزكى صلوات الله وتسليماته على سيدنا، وإمامنا وأُسوتنا وحبيبنا: محمد، الذي كانت صلاته ونُسُكه ومحياه ومماته لله ربِّ العالمين، لا شريك له، كان كلُّه لله، إذا تكلَّم فللَّه، وإذا صمت فللَّه، وإذا غضب فللَّه، وإذا رضي فللَّه، وإذا أحبَّ فللَّه، وإذا أبغض فللَّه، إذا أعطى أو منع أو سالم أو حارب فللَّه، ولا شيء غير الله، وقد علَّمَنا أن ندعو الله فنقول: «**اللهم إنَّا نعوذ بك أن نُشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»[1].

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن أبي شيبة في التعوُّذ من الشِّرْك (٣٠١٦٣)، والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩)، وقال المنذري في التَّرغيب والتَّرهيب (٦٠): رواه أحمد والطبراني، ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثَّقه ابن حِبَّان، ولم أرَ أحدًا جرحه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٧٤): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثَّقه ابن حِبَّان. وحسَّنه الألباني لغيره في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٦)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

ورضي الله عن أصحابه، الذيـــن أخلصوا دينَهـــم لله، وأخلصهم الله لدينه، فهاجروا لله، وآوَوْا ونصروا لله، وجاهدوا بأموالهم وأنفســـهم في ســـبيل الله، وكان الله ورسوله والجهاد في ســـبيله أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهـــم وإخوانهم وعشـــيرتهم، وأمـــوالٍ اقترفوها، وتجارةٍ يخشَـــوْن كسادها، ومســـاكنَ وأوطانٍ يرضونها، ورضي الله عمَّن سار على دربهم إلى يوم الدِّين.

(أما بعد)

فهذه الصفحات تتحدَّث ـ أخي القارئ ـ عن شُعْبةٍ عظيمة من شُعَب الإيمان، وعن مقامٍ رفيعٍ من مقامات الربَّانيِّيـــن، هو مقام «التَّوكُّل على الله» تعالى شـــأنه، الذي حثَّ عليه القرآن الكريم بأساليب شتَّى، وصور متنوِّعة، وكذلك السُّـــنَّة النبويَّة المشـــرفة. وكان رســـول الله ﷺ نموذجًا للمؤمن «المتوكِّل» علـــى ربِّه حقَّ توكُّلِه، كمـــا وُصِف بذلك في بعض كُتُبِ أهل الكتاب.

وهذه الشُّعْبة، أو هذا المَقَام، أو الخُلُق الربَّاني، من المقامات التي دخل فيها خَلْط وخَبْط، وسوءُ فهْمٍ عريض، حتَّى التبس التَّوكُّل بالتواكل واطِّراح الأسباب، ورُويت في ذلك حكايات عن بعض الصُّوفيَّة، فيها مبالغاتٌ تخرج عن منهج الوَسَـــطيَّة التي جاء بها الإسلام، كما تخرج عن نظام السُّنَن التي أقام الله عليها هذا الخَلْق، وربطها بشبكة الأسباب والمسبَّبات.

ونحن على منهجنا الذي التزمناه لا نحيد عنه، وهو الاستمساك بما جاء في القرآن وصحيح السُّنَّة، ففيهما النَّجاة من كلِّ هَلَكة، والسلامة من كل انحراف، والاهتداء إلى ما يحـــبُّ الله ويرضى، ففيهما الحياة والنور

QaradawiBooks.com

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

أرجو أن تجد أخي القارئَ في هذه الصحائف ما يُوَضِّح لك الغاية، وما يُضيءُ لك السبيل، ويساعدك على أن تَثِقَ بربِّك، وتضع يدك في يده، متوكِّلًا عليه، وكفى بالله وكيلًا. وأن تجتهد في رعاية الأسباب المشروعة، كما أمرك اللهُ، وأنْ تَدَعَ النتائج إلى مسبِّب الأسباب، وربِّ الأرباب، فالكون كلُّه بِيَدِه، والمرجع إليه وحده: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ونختم هذه التَّقْدِمة بما قاله نبيُّ الله شُعَيب عليه السلام لقومه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

الدوحة في: المحرم ١٤١٥هـ
يونيو (حزيران) ١٩٩٤م

الفقير إلى عفو ربه
يوسف القرضاوي

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التَّـــوكُّـــل

الفصل الأول: فضل التَّوكُّل
الفصل الثاني: حقيقة التَّوكُّل
الفصل الثالث: مجال التَّوكُّل ومتعلقه
الفصل الرابع: التَّوكُّل ورعاية الأسباب
الفصل الخامس: التَّداوي والتَّوكُّل
الفصل السادس: من ثمار التَّوكُّل على الله
الفصل السابع: من بواعث التَّوكُّل
الفصل الثامن: عوائق التَّوكُّل

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الفصل الأول

فضـل التَّوكُّـل

التَّوكُّل عبــادةٌ من أفضل عبادات القلــوب، وخُلُق من أعظم أخلاق الإيمان، وهو ـ كما قال الإمام الغزالي[١] ـ منزلٌ من منازل الدِّين، ومَقَام من مقامات المُوقِنِين، بل هو من معالي درجات المُقَرَّبين.

بل هو كما قال الإمــام ابن القيِّم: نصفُ الدِّيــن، والنِّصْف الآخر «الإنابة»[٢]. كما يشــير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هــود: ٨٨]. فإنَّ الدِّين عبادةٌ واســتعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والتَّوكُّل استعانة، والإنابة عبادة.

الحاجة إلى التَّوكُّل:

وحاجة المســلم السَّــالِك لطريق الله إلى التَّوكُّل حاجة شــديدة، وخصوصًا في قضيــة «الرزق» الذي شــغل عقول النــاس وقلوبهم، وأورث كثيرًا منهم ـ بل أكثرهــم ـ تَعَب البدن، وهَــمَّ النَّفْس، وأرَقَ اللَّيْل، وعناءَ النَّهار.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٤٣/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) مدارج الســالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإياك نســتعين لابن القيم (١١٣/٢)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

وربما قَبِلَ أحدُهم أن يُذِلَّ نفْسَه، ويحني رأسَه، ويبذلَ كرامتَه، من أجل لقمةِ العَيْش التي يحسِب أنَّها في يد مخلوقٍ مثلِه، إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، فحياته وحياةُ أولاده في قبضته، فهو قادرٌ ـ في نظره ـ أن يُحيي ويميت كما قال «نمرود» في محاجَّة الخليلِ إبراهيم عليه السلام.

بل ربَّما زاد أحدُهم على ذلك، فأفتى نفسه بأكل السُّحت، وأخْذ الرشوة، واستباحة الرِّبا، وأكل المال بالباطل، خوفًا على نفسه إذا شاخ بعد الشباب، أو مرض بعد الصِّحَّة، أو تعطَّل بعد العمل، أو خشية على ذريَّة ضعفاء من بعده. وقد قال الإمام عبد الله بن المبارك: من أكل فلسًا من حرام فليس بمتوكِّل[1].

والمخرج من هذا كلِّه هو الاعتصام بالتَّوكُّل على الله تعالى.

وأحوج ما يكون المسلم إلى التَّوكُّل إذا كان صاحب دعوة، وحامل رسالة، وطالب إصلاح، فهو يجد في التَّوكُّل ركنًا ركينًا، وحصنًا حصينًا، يلوذ به في مواجهة طواغيت الكفر، و«فراعنة» الظُّلْم، و«قَوَارين» البَغْي، و«هَوَامِينَ» الفساد. فهو ينتصر بالله، ويستعزُّ بالله، ومَن انتصر بالله، فلن يُغلب أبدًا، ومَن استغنى به فلن يفتقر أبدًا، ومَن استعزَّ بالله فلن يذلَّ أبدًا، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فضل التَّوكُّل في القرآن:

ولا غرو أن عُنِيَ القرآن الكريم بالتَّوكُّل، أمرًا به، وثناءً على أهله، وبيانًا لفضله وآثاره في الدنيا والآخرة.

(١) الرسالة القشيرية للقشيري (٣٠٨/١)، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

QaradawiBooks.com

أمر الله رسوله بالتَّوكُّل:

أمر الله به رسوله ﷺ في تسع آيات من كتابه:

في القرآن المكي نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠].

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي القرآن المدنيِّ نقرأ قوله سبحانه:

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٣].

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

QaradawiBooks.com

وجاء الأمر بالتَّوكُّل للرسول الكريم في موضع عاشر، ولكن بصيغة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩].

وذلك من أوائل ما نزل من القرآن، حتَّى يستعين بالتَّوكُّل على الله في حمل «القول الثَّقيل» الذي ألقاه الله عليه، ومواجهة المكذِّبين أُولي النَّعمة، والصبر على ما يقولون، وهجرهم الهجر الجميل.

كما أمر ﷺ بإعلان التَّوكُّل على الله تعالى في أكثر من آية، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، وهذا في القرآن المكّي، ومثل قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وهذا في القرآن المدني.

ومن المعلوم أنَّ الأوامر التي خوطب بها النبيُّ ﷺ موجَّهة إلى كل المكلَّفين من أمَّته كذلك، ما لم يقُمْ هناك دليلٌ على الخصوصيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥].

فالأمر للرَّسول ﷺ بالتَّوكُّل أمرٌ لأُمَّته جميعًا به.

أمر المؤمنين عامَّة بالتَّوكُّل:

وقد جاء الأمر بالتَّوكُّل للمؤمنين عامَّة على ألسنة الرسل السابقين، كما في قوله تعالى في ردِّ الرسل على أقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا

غير مرخصة للطباعة

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١].

وجاء الأمر كذلك على لسان رَجُلَيْن من أصحاب موسى، يَحُثَّان قومَهما على دخول الأرض المقدَّسة، وعدم التهيُّب من الجبَّارين فيها: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

فجعل التَّوكُّل شرطًا لثبوت الإيمان، والشَّرط ينتفي عند انتفاء المشروط، ولا يقال: إنَّ هذا كان شرع من قبلنا، فإنَّ شرع مَن قبلنا شرع لنا، ما لم يرد نسخ له في شرعنا، وإلا كان ذكره عبثًا، ولم يكن لنا فيه عبرة ولا أُسوة، وهو خلاف ما نصَّ عليه القرآن. وشرعنا لم ينسخ التَّوكُّل بل زاده توثيقًا وتأكيدًا.

فقد جعله الله تعالى من الأوصاف الأساسية للمؤمنين الصَّادقين، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، كما أمر الله تعالى به في كتابه بقوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن: ١٣]، وورد الأمر كذلك في سورة المائدة الآية رقم (١١) والمجادلة الآية رقم (١٠).

QaradawiBooks.com

التَّوكُّل خُلق الرسل جميعًا:

وقد أكَّد لنا القرآن أنَّ «التَّوكُّل» كان خُلُق رسل الله جميعًا، منذ نُوحٍ شيخِ المرسلين إلى محمَّدٍ خاتمهم، صلوات الله عليهم جميعًا.

يقول تعالى على لسان الرُّسُل جميعًا: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال على لسان نُوح: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

وقال تعالى على لسان هُود وقد خوَّفوه أن تعتريَه آلهتهم بسوء! فقال متحدِّيًا: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وقال تعالى على لسان إبراهيم والذين معه، الذين تبرَّؤوا من قومهم وممَّا يعبدون من دون الله: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال سبحانه على لسان شُعَيْب: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وقال في شأن موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۞ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦].

QaradawiBooks.com

القرآن يبين آثار التَّوكُّل:

وقد جعل الله تعالى الإيمان شرطًا للتوكُّل في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، والمعلَّق على شرط ينتفي بانتفائه، فإذا انتفى التَّوكُّل انتفى الإيمان.

وقال تعالى في بيان أثر التَّوكُّل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فجعل الله تعالى جزاء المتوكّل أنه كافيه وحسبه، وكفى بهذا فضلًا، فقد قال في السورة نفسها: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فجعل لها جزاءً معلومًا، وجعل نفسه تعالى حسْب المتوكّل وكافيه.

كما أخبر تعالى أنه: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأي درجة أعلى مِنْ درجة مَن يحبُّه الله ﷻ؟ قال الغزالي: «وأَعظِمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّة الله تعالى صاحبُه، ومضمونٍ كفايةُ الله تعالى مُلابسُه، فمَن اللهُ تعالى حسْبه وكافيه، ومحبُّه وراعيه، فقد فاز الفوز العظيم[1]، فإنَّ المحبوب لا يُعذَّب ولا يُبعَد ولا يُحجب».

وقال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، فطالِب الكفاية من غيره والتَّارك للتوكُّل، هو المكذِّب بهذه الآية، كما يقول الغزالي؛ فإنَّه سؤالٌ في معرِض استنطاقٍ بالحقِّ.

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤٩]، أي «عزيز»: لا يَذل مَن استجار به، ولا يَضيع مَن لاذ بجنابه، والتجأ

(١) وفي هذا ردٌّ على العلَّامة الهروي صاحب منازل السائرين في قوله: إنَّه من أوهى السبل عند الخاصة، وإن كان من أصعب المنازل على العامة. وقد رد عليه ابن القيم في المدارج فأحسن وأفاد، رحمهما الله. انظر: مدارج السالكين (١٢٧/٢) وما بعدها.

QaradawiBooks.com

إلى ذمامه وحماه، و«حكيم»: لا يقصُر عن تدبير مَن توكَّل على تدبيره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، فبيّن أنَّ كلَّ ما سوى الله تعالى عبد مسخَّر، حاجته مثل حاجتكم، فكيف يُتوكّل عليه؟!

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

قال الإمام الغزالي: وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآن من «التوحيد» فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتَّوكُّل على الواحد القهَّار[١].

فضل التَّوكُّل في السُّنَّة:

وفي «الصحيحين» في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمَّة، وُصِفُوا بأنَّهم: «**هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكّلون**»[٢].

وفي «الصحيح»، أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، اللهمَّ إني**

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠) (٣٧٤)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أعوذ بعزَّتك ـ لا إله إلا أنت ـ أن تضلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت، والجنُّ والإنس يموتون»[١].

وفي «التِّرْمذي»، عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا، وتروح بِطانًا**»[٢]، ومعنى «خماصًا»: أي فارغة البطون.

وفي «السنن»، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله، توكَّلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت. فيقول الشيطان لشيطانٍ آخَر: كيف لك برجل قد هُدِيَ وكُفِي ووُقِي**»[٣].

وفي «سنن أبي داود»، عن أبي مالك الأشعري مرفوعًا: «**إذا ولج الرجل بيته، فليقل: اللهمَّ أسألك خير المَوْلِج، وخير المَخْرَج، باسم الله وَلَجْنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربِّنا توكّلنا. ثم لِيُسلِّمْ على أهله**»[٤].

* * *

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٧)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (٢٠٥) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والتِّرْمذي (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٦٤) كلاهما في الزهد، والنسائي في الكبرى (٣٦٩/١٠)، والحاكم (٣١٨/٤)، كلاهما في الرقاق، وصححه إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٠).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٥)، والتِّرْمذي في الدعوات (٣٤٢٦) وقال: حسن غريب. وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (٥٩): حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٦)، والطبراني (٢٩٦/٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٨٣٩).

QaradawiBooks.com

الفصل الثاني

حقيقة التَّوكُّـل

إذا كان للتوكّل كلُّ هذا الفضل، ولأهله كل هذا الحمد والثناء من الله ورسـوله، فإنَّ السـؤال الذي يُلـحُّ هنا، هـو: ما حقيقة هـذا التَّوكُّل؟ وما حدُّه؟ وما معناه؟

إنَّ توضيح المفهوم هنا، وتحديـده بدقة أمر ضروري، لمن يريد أن يتخلَّق بهذا الخُلُق، ويتحقَّق بهذا الوصف، وإلا حَسِـب كثيرٌ من الناس أنفسَهم متوكِّلين، وما هم من التَّوكُّل في شيء، أو ألزموا أنفسهم ـ لكي يتحلَّوْا بالتَّوكُّل ـ ما لم يُلزمهم الله به.

عبارات القوم في بيان حقيقة التَّوكُّل:

وإذا رجعنا إلى أرباب السـلوك، وجدنا عبارتهـم تختلف في بيان حقيقته، على عادتهم في مثل هذه التعريفات، فقلَّما تكون جامعة مانعة؛ لأن كل واحد منهم يُعبِّر عن حاله، أو يراعي حال مَن يخاطبه.

ذكر القُشَيْري في «رسالته» عدّة تعريفات ذكرها القوم، ونقلها ابن القيِّم في «مدارجه» وعلَّق عليها تعليقًا حسنًا، يحسن بنا أن نورد أهمه هنا. قال:

قال الإمـام أحمد: التَّوكُّل عمل القلب. ومعنى ذلـك: أنَّه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

QaradawiBooks.com

ومن الناس: مَن يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الربِّ للعبد.

ومنهم: مَن يفسِّره بالسكون، وخمود حركة القلب. فيقول: التَّوكُّل هو انطراح القلب بين يدي الربِّ، كانطراح الميِّت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء. وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التَّوكُّل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: مَن يفسِّره بالرِّضا، فيقول: هو الرِّضا بالمقدور.

قال بِشْر الحافي: يقول أحدهم: توكَّلتُ على الله. يكذب على الله، لو توكَّل على الله، رضي بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن مُعاذ: متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلًا.

ومنهم: مَن يفسِّره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه. والسكون إليه.

وقيل: التَّوكُّل نفيُ الشكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

يريد قطعها من تعلُّق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم: مَن جعله مُركَّبًا من أمرين أو أُمور.

فقال أبو سعيد الخرَّاز: التَّوكُّل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

QaradawiBooks.com

يريد: حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلى المسبِّب، وركون إليه، ولا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه.

وقال أبو تُرَاب النَّخْشَبِي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلُّق القلب بالربوبيَّة، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطِيَ شكر، وإن مُنِعَ صبر.

فجعله مركَّبًا من خمسة أمور: القيام بحركات العبوديَّة، وتعلُّق القلب بتدبير الربِّ، وسكونه إلى قضائه وقدره وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطى، وصبره إذا منع.

قال أبو يعقوب النهرجُوري: التَّوكُّل على الله بكمال الحقيقة ما وقع لإبراهيم الخليل ﷺ في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام: «أمَّا إليك فلا»؛ لأنَّه غائب عن نفسه بالله، فلم ير مع الله غير الله.

وأجمع القوم على أنَّ التَّوكُّل لا ينافي القيام بالأسباب. فلا يصح التَّوكُّل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكُّل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: مَن طعن في الحركة، فقد طعن في السُّنَّة، ومن طعن في التَّوكُّل فقد طعن في الإيمان.

فالتَّوكُّل حال النبي ﷺ، والكسب سُنَّته. فمَن عمل على حاله فلا يتركَنَّ سُنَّته، وهذا معنى قول أبي سعيد: «هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب»، وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: التَّوكُّل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهلٌ عن التَّوكُّل فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة.

QaradawiBooks.com

وقيل: التَّوكُّل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وقيل: التَّوكُّل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال.

وهذا من موجباته وآثاره، لا أنه حقيقته.

وقيل: هو ترك كلِّ سبب يُوصلك إلى مُسبَّب، حتَّى يكون الحقُّ هو المتولِّي لذلك.

وهذا صحيح من وجه، باطل من وجه. فترك الأسباب المأمور بها قادح في التَّوكُّل، وقد تولَّى الحقُّ إيصال العبد بها. وأمَّا ترك الأسباب المباحة: فإنْ تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح، وإلا فهو مذموم.

وقيل: هو إلقاء النفس في العبوديَّة، وإخراجها من الربوبيَّة.

يريد استرسالها مع الأمر، وبراءتها من حَوْلها وقوتها، وشهود ذلك بها. بل بالربِّ وحده.

ومنهم من قال: التَّوكُّل هو التسليم لأمر الربِّ وقضائه.

ومنهم من قال: هو التفويض إليه في كل حال.

ومنهم من جعل التَّوكُّل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.

قال أبو عليٍّ الدقَّاق: التَّوكُّل ثلاث درجات: التَّوكُّل، ثم التسليم، ثم التفويض. فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. فالتَّوكُّل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية، فالتَّوكُّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحِّدين.

QaradawiBooks.com

التَّوكُّل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خاصة الخاصة.

التَّوكُّل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

هذا كلُّه كلامُ الدَّقَّاق. ومعنى هذا: التَّوكُّل اعتماد على الوكيل، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه، وإرادةٍ وشائبةِ منازعة. فإذا سلَّم إليه زال عنه ذلك، ورضي بما يفعله وكيله. وحالُ المفوِّض فوق هذا. فإنَّه طالبٌ مريدٌ ممَّن فوَّض إليه، ملتمس منه أن يتولَّى أموره، فهو رضا واختيار، وتسليم واعتماد. فالتَّوكُّل يندرج في التسليم. وهو والتسليم يندرجان في التفويض. والله تعالى أعلم[1] اهـ.

حقيقة التَّوكُّل كما يشرحها الغزالي:

وقال الإمام الغزالي في «الإحياء» في بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التَّوكُّل: «اعلم أنَّ التَّوكُّل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتَّوكُّل كذلك ينتظم من: علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التَّوكُّل.

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل، وهو المسمَّى: إيمانًا في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق، وكُلُّ تصديقٍ بالقلب فهو علم، وإذا قوي سُمِّي: يقينًا، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنَّما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التَّوكُّل، وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، والإيمان بالقُدرة التي يُترجم عنها قولك: «له

(١) مدارج السالكين (٢/١١٤ ـ ١١٨). وذكر هذه الآثار القشيري في رسالته (١/٣٠٠ ـ ٣٠٣).

QaradawiBooks.com

الْمُلك»، والإيمان بالجود والحكمة الذي يدلُّ عليه قولك: «وله الحمد»؛ فمن قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ» تمَّ له الإيمان الذي هو أصل التَّوكُّل، أعني أن يصير معنى هذا القول وصفًا لازمًا لقلبه غالبًا عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول»[١].

وبعد أن أطال الغزالي الكلام عن «العلم» انتقل إلى «الحال» فقال: «فأمَّا الحال، فالتَّوكُّل بالتحقيق عبارة عنه. وإنَّما العلم أصله، والعمل ثمرته. وقد أكثر الخائضون في بيان حدِّ التَّوكُّل، واختلفت عباراتهم، وتكلَّم كلُّ واحدٍ عن مقام نفسه، وأخبر عن حدِّه، كما جرت عادة أهل التَّصَوُّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار، فلنكشف الغطاء عنه، ونقول:

التَّوكُّل: مشتق من «الوكالة»، يقال: وَكَلَ أمرَه إلى فلان، أي فوَّضه إليه، واعتمد عليه فيه. ويسمَّى الموكول إليه: «وكيلًا»، ويسمَّى المفوَّض إليه مُتَّكِلًا عليه، ومتوكِّلًا عليه، مهما اطمأنت إليه نفسه، ووثق به، ولم يتَّهمه فيه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزًا وقصورًا، فالتَّوكُّل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»[٢].

وبهذا نتبيَّن أنَّ التَّوكُّل ـ كسائر أبواب الإيمان ومقامات الارتقاء الروحي ـ تشتمل على جوانب ثلاثة: الجانب المعرفي الإدراكي «الذي يُعبَّر عنه بالعلم»، والجانب الوجداني العاطفي «الذي يُعبَّر عنه بالحال»، والجانب الإرادي السلوكي «الذي يُعبر عنه بالعمل».

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢٤٥).
(٢) المصدر السابق (٤/٢٥٩).

QaradawiBooks.com

كلام ابن القيِّم في حقيقة التَّوكُّل ودرجاته:

ولعلَّ ممَّا يزيد الأمر وضوحًا في بيان حقيقة التَّوكُّل ومقوِّماته، ما ذكره الإمام ابن القيِّم في شرح «المنازل»، إذ قال بعد أن ذكر تعريفات القوم واختلافها، وقد أوردنا جُلَّها من قبل: «وحقيقة الأمر: أن التَّوكُّل حالٌ مركَّبة من مجموع أُمور، لا تتمُّ حقيقة التَّوكُّل إلا بها. وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر»، ثم ذكر هذه الأمور، وسمَّاها «درجات».

قال: «وأنا أذكر البيِّن من هذه الأمور، ممَّا لا تداخل فيه ولا تكرار:

فأوَّلها: معرفةٌ بالربِّ وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التَّوكُّل»[1].

ومنها: رسوخ القلب في مقام التوحيد: فإنَّه لا يستقيم توكّل العبد حتَّى يصحَّ له توحيده. بل حقيقة التَّوكُّل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكُّله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحَّة التَّوكُّل، فإنَّ العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شُعبة من شُعَب قلبه، فنقص من توكّله على الله بقدر ذهاب تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظنَّ من ظنَّ أن التَّوكُّل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب. وهذا حقٌّ. لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتَّوكُّل لا يتمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلُّق الجوارح بها. فيكون منقطعًا منها متصلًا بها. والله تعالى أعلم.

---

(١) مدارج السالكين (١١٨/٢).

QaradawiBooks.com

ومنها: اعتماد القلب على الله، واســتناده إليه، وسكونه إليه. بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويُلبسه السكونَ إلى مسبِّبها.

وعلامة هذا: أنَّه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق، عند إدبار ما يحبُّ منها وإقبال ما يكره؛ لأنَّ اعتماده على الله وســكونه إليه واســتناده إليه قد حصَّنه من خوفها ورجائها، فحاله حال مَن خرج عليه عدوٌّ عظيــم لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًــا، فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشــاهد عدوَّه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملكٌ درهمًا، فسُــرِق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه، فلا تهتمَّ، متى جئتَ إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه. فإذا علم صحَّة قول الملك، ووثِق به، واطمأنَّ إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك؛ لم يحزنه فوته.

وقد مُثِّل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه، وطمأنينته بثدي أمه، لا يعرف غيره. وليــس في قلبه التفات إلــى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكِّل كالطفل، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكّل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

ومنها: حُسْن الظن بالله ﷻ.

فعلى قدر حُسْن ظنِّك بربِّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه؛ ولذلك فسّر بعضهم التَّوكُّل بحُسْنِ الظن بالله.

والتحقيق: أنَّ حُسْــن الظن به يدعوه إلى التَّوكُّل عليه؛ إذ لا يُتصوَّر التَّوكُّل على مَن ساء ظنُّك به، ولا التَّوكُّل على مَن لا ترجوه. والله أعلم.

QaradawiBooks.com

ومنها: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه، وقطع منازعاته.

وبهذا فسَّره مَن قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميّت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التَّوكُّل إسقاط التدبير، يعني: الاستسلام لتدبير الربِّ لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله، فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه، وإرادتها مع سيده. والله تعالى أعلم.

ومنها: التفويض.

وهو روح التَّوكُّل ولُبّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلِّها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كلَّ أموره إلى أبيه، العالِم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحُسْن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أنَّ تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتولِّيه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولِّيه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفقَ من تفويضِه أمورَه كلَّها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلَفِها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم مَن فوَّض إليه، وقدرته وشفقته.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلى درجة «الرضا».

وهي ثمرة التَّوكُّل، ومَن فسَّر التَّوكُّل بها، فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكّل حقَّ التَّوكُّل رَضِيَ بما يفعله وكيله.

QaradawiBooks.com

وكان شيخنا رحمه الله يقول: المقدور يكتنفه أمران: التَّوكُّل قبله، والرضا بعده. فمَن توكَّل على الله قبل الفعل، ورضـي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبـي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**»، فهذا توكّل وتفويض.

ثم قال: «**فإنَّك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علَّام الغيوب**»، فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحَوْل والقوة، وتوسَّل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبُّ ما توسَّل إليه بها المتوسِّلون. ثم سأل ربَّه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلًا، أو آجلًا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرَّته عاجلًا أو آجلًا. فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّنِي به**»[(١)].

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهيَّة، والحقائق الإيمانيَّة، التي من جملتها: التَّوكُّل والتفويض، قبل وقوع المقدور، والرضا بعده، وهو ثمرة التَّوكُّل، والتفويض علامة صحَّته، فإن لم يرضَ بما قُضي له، فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات يستكمل العبد مقام التَّوكُّل، وتثبت قدمه فيه[(٢)].

قال العلامة ابن القيِّم: «وكثيرًا ما يشتبه في هذا البابِ: المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالإضاعة؛ فيُضيع العبد

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨٢)، عن جابر.

(٢) مدارج السالكين (١٢٢/٢، ١٢٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة علمية
QaradawiBooks.com

حظَّه، ظنًّا منه أنَّ ذلك تفويض وتوكُّل، وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حقِّ الله، والتفويض في حقِّك.

ومنه: اشتباه التَّوكُّل بالراحة، وإلقاء حمل الكُلِّ، فيظن صاحبه أنه متوكِّل. وإنما هو عامل على الراحة[1].

وعلامة ذلك: أنَّ المتوكِّل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريحٌ من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة، وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون، وهذا لون.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أنَّ الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرَّط فيما أُمِر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصحُّ بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. ولا يميِّز بينهما إلا صاحب البصيرة.

وأكثر المتوكّلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم. وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همُّه وبثُّه وخوفه. فعلم أنَّ طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله.

---

(١) كانت بالمطبوع الذي بين أيدينا: عامل على عدم الراحة، والمثبت هو الأليق بالسياق.

QaradawiBooks.com

ومنه: اشتباه الرضا عن الله بكلِّ ما يفعل بعبده ممَّا يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به. وذلك شيء والحقيقة شيء آخر. كما يُحكى عن أبي سليمان أنَّه قال: أرجو أن أكون أُعطيت طَرَفًا من الرضا، لو أدخلني النار لكنتُ بذلك راضيًا!

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا عزم منه على الرضا وحديث نفسٍ به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء. وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته.

ومنه: اشتباه علم التَّوكُّل بحال التَّوكُّل، فكثير من الناس يعرف التَّوكُّل وحقيقته وتفاصيله، فيظنُّ أنَّه متوكِّل، وليس من أهل التَّوكُّل. فحال التَّوكُّل: أمر آخر من وراء العلم به، وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها، وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبيه بمعرفة المريض ماهيَّة الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا باب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[1].

* * *

(١) انظر: مدارج السالكين (١٢٣/٢، ١٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفصل الثالث

مجال التَّوكُّـل ومتعلقه

مجال التَّوكُّل واسع، ومتعلَّقه شامل لكلِّ ما يطلبه الخلق ويحرصون عليه من أمور الدنيا ومطالب الدين.

التَّوكُّل في أمر الرزق:

ولكن كثيرًا من الناس إذا ذكر «التَّـوكُّل» لم يخطر في بالهم إلا «الرزق»، فهو يتوكَّل علـى الله في أمر الرزق الذي ضمنه لعباده. كما ضمنه لكلِّ دابَّة في الأرض: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وإذا دُعِيَ إلى الإنفاق أنفق وهو مطمئنٌّ إلى أنَّ الله سيَرزقه خيرًا ممَّا أنفق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وحين تحدَّث الإمـام الغزالي في كتابه: «منهـاج العابدين» عن «العوارض» التي تعرض لسـالك الطريق إلى الله، جعل في مقدمتها «الرزق»، ووصف العلاج لها في «التَّوكُّل»[1].

(١) منهاج العابدين إلى جنَّـة ربِّ العالمين للغزالـي صـ ٢٢٩ ـ ٢٤١، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

ولا ريب أنَّ أمر الرزق قد أهمَّ الناس وشغلهم، كما شغلهم أمر الأجل، بَيْد أن المتوكّلين على الله قد فرغوا من هذين الأمرين، فقد اطمأنُّوا إلى أنَّ الرزق مقسوم، والأجل معلوم، فلا يملك أحد أن ينقص من رزقهم مثقال حبَّة، ولا أن يُقدِّم أجلهم مقدار لحظة.

وهذا لا يعني أن يُهْمِل السَّعي لرزقه، بل يسعى ويكدح، وهو مطمئنٌّ أن أحدًا لا يأكل رزقه، كما لا يأكل هو رزق غيره، وأنَّ ما أصابه من رزق لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

لقد جهل عرب الجاهلية هذا الأمر، فاقترفوا أبشع جريمة: قتلوا أولادهم بأيديهم شر قتلة، بأخبث دافع: من أجل إملاق «فقر» واقع، أو خشية إملاق متوقع، أي مخافة أن يطعموا معهم، ويزاحموهم في رزقهم، غافلين عن أن رزقهم يأتي معهم.

يقول تعالى في سياق ما حرَّم على عباده: ﴿ تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي سورة أخرى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقد أبطل الإسلام هذه الجريمة الشنعاء، وعلَّم الناس أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن خزائنه ملأى لا تنفد: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

جريمة الجاهلية المعاصرة:

ولكنَّ الجاهلية المعاصرة ـ جاهلية القرن العشرين ـ طفقت تُحيي بعض ما مات من الجاهلية القديمة، وتُخوِّف الناس من أمر الرزق،

QaradawiBooks.com

وتحرِّضهم على الإجهاض، إجهـــاض أطفالهم مخافة أن يطعموا معهم، كما رأينا ذلك في أوراق مؤتمر السكان العالمي الذي انعقد في القاهرة «سبتمبر (١٩٩٤م)».

أمَّا المسلمون الأوائل، فقد أَنِسوا إلى وعد الله تعالى، وأيقنوا بصدقه، واطمأنُّوا إلى ضمانـــه، فلم يبخلوا ببذل الأموال، ولـــم يضِنُّوا ببذل الأرواح، في سبيل الله.

عند تجهيز جيش العُسْـــرة في غزوة تبوك، تســـابق الصحابة في الإنفاق والبذل، فجـــاء عمر بنصف ماله، وجاء أبـــو بكر بماله كلِّه، وقال له الرسول ﷺ: «**وماذا أبقيتَ لأهلك وعيالك؟**» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله[(١)]!

قيل لبعض المجاهدين في عصور الفتـــح: مَن يكفي أولادك من بعدِك؟ قال: علينا أن نجاهد في سبيله كما أَمَرنا، وعليه أن يرزقنا كما وَعَدنا!

وقيل لزوجة مجاهد من السَّـــلَف: من أين تعيشين أنت وأولادك بعد ذهاب زوجك؟

فقالت بكلِّ ثقـــة: زوجي منـذ تزوجتـــه وعرفته، عرفتـــه أكّالًا، وما عرفته رزَّاقًا، فلئن ذهب الأكَّال فقد بقي الرزَّاق[(٢)]!

---

(١) رواه أبو داود فـــي الـــزكاة (١٦٧٨)، والتِّرْمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حســـن صحيح. والحاكم في الزكاة (٥٧٤/١)، وصحَّحه على شـــرط مســـلم، وحسَّـــنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٢)، عن عمر.

(٢) إحياء علوم الدين (٥٨/٢).

QaradawiBooks.com

التَّوكُّل في أمور الدنيا الأخرى:

ورغم أهمية أمر الرزق لدى أكثر الناس، فهو ليس كل ما يطلب الناس من أمر الدنيا. فهناك مَن يطلب الزوجة، وهي من أهم ما يُطلب من دنيا الناس. وفي الحديث الصحيح: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»(١).

وهناك مَن يطلب الذُّرِّية التي تكون له قُرَّة عين، وترثه من بعده، وهو مطلب مشروع دعا به الأنبياء والصالحون.

قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

وقال زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وهناك من يطلب العافية، وهي أهم ما يطلب الأفراد لأنفسهم.

وفي الحديث: «**سلوا الله العفو والعافية، فإنَّ أحدًا لم يُعْطَ بعد اليقين خيرًا من العافية**»(٢).

وفي دعاء القنوت: «**وعافني فيمن عافيت**»(٣).

وهناك من يطلب الانتصار على عدوٍّ ظلمه، فهو يريد أن يشفي غُلَّته بأخذ الله له. وهذا لا حرج فيه، فهو من طبائع البشر، وقد

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (٥) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والتِّرْمذي في الدعوات (٣٥٥٨)، وقال: حسن غريب. وقال الألباني في صحيح التَّرغيب (٣٣٨٧): حسن صحيح. عن أبى بكر الصديق.

(٣) رواه أحمد (١٧١٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات. وأبو داود في الصلاة (١٤٢٥)، والتِّرْمذي في الوتر (٤٦٤)، وقال: حسن. والنسائي في قيام الليل (١٧٤٥)، عن الحسن بن علي.

QaradawiBooks.com

رخَّص الله للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول في حقِّ ظالمه، رعايةً لحاله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

وهذه كلُّها مطالبُ دنيويَّة مشروعة، ومن متعلَّقات التَّوكُّل على الله تعالى.

فالمؤمن يتوكَّل على ربِّه أن يرزقه الزوجة الصالحة، والأولاد الصالحين، كما دعا بذلك عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ويتوكّل عليه حتَّى يمنحه العافية، وينصره على ظالمه.

التَّوكُّل في أمر الدين:

ولكن هناك ما هو أعظم من هذا، وهو مَن يتوكّل على الله تعالى، حتَّى يأخذ بيده، ويعينه على سلوك الصِّراط المستقيم، ويثبِّته عليه، ويجعله من ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠، والأحقاف: ١٣]، ويمنع عنه المشوِّشات وقواطع الطريق، من النفس والشيطان، والدنيا والناس. كما قال العبد الصالح:

إني بُليتُ بأربعٍ يَرْمِينَني ... بالنَّبْلِ عن قَوْسٍ له تَوْتِيرُ
إبليسُ والدُّنْيا ونَفْسي والوَرَى ... يا ربّ أنتَ على الخَلَاصِ قَدِيرُ[1]

وهناك ما هو أعلى من هذه المرتبة في متعلَّقات التَّوكُّل، وهي: مرتبة من يتوكَّل على الله تعالى في إعلاء كلمته، ونُصْرة دعوته، وتأييد شريعته،

(١) ذكرهما القرطبي ولم ينسبهما لأحد. انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة صـ ٨٨٠، تحقيق د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، نشر مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

QaradawiBooks.com

وتبليغ رسالته، وجهاد أعدائه، والتمكين لدينه في الأرض، حتَّى يُحِقَّ الحقَّ، ويُبْطِلَ الباطل، ويقوم العدل، وينقشع الظُّلْم، ويخرج الناس من الظُّلمات إلى النُّور، وبذلك لا تكون فتنة، ويكون الدِّينُ كلُّه لله.

توكُّل الأنبياء وورثتهم في إقامة الدين:

وهذا هو توكُّل الرسل والأنبياء، وهو الذي حكاه عنهم القرآن، حيث تحداهم أقوامُهم متعنِّتين، فواجهوهم بقوة التَّوكُّل متثبِّتين ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهذا هو موقف ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة في كلِّ عصر، ولا سيما في عصرنا الذي احتشدت فيه القوى المعادية للإسلام، من يهوديَّة غادرة، وصليبيَّة ماكرة، وشيوعيَّة كافرة، ووثنيَّة فاجرة. وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ولكنَّ حَمَلة رسالات الله لن يتراجعوا عن دعوتهم، ولن ييْئسوا من رَوْح الله، وسيمضُون في طريقهم متوكِّلين على ربِّهم، موقنين أنَّ الله وليُّ المؤمنين والمدافع عنهم، إن تخلَّى عنهم المدافعون، وتآمر عليهم المتآمرون، ومكر بهم الماكرون، فإنَّ الله أسرع مكرًا، وأقوى كيْدًا: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

ما عليهم إلا أن يستمسكوا بشريعة الله، ولا يبالوا بأعدائها، وأن يوقنوا بقوله تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

QaradawiBooks.com

إنَّ الذي نصر أصحاب طالوت وهم قِلَّة، ونصر المسلمين في بدر وهم أذلَّة، ونصر المسلمين يوم الخندق، وهم محاصَرون، قادر على أن ينصرهم اليوم، وهم من كل صَوْب يُهاجَمون، وفي كل أرض يُضطَهدون.

إنَّ الملائكة التي نزلت في بدر والأحزاب وحُنَين، يمكن أن تنزل اليوم على المؤمنين المحاصَرين المغلوبين: في فلسطين، وفي البوسنة والهرسك، وفي جامو وكشمير، وفي الفلبين، وفي إريتريا والحبشة، وفي بلاد إسلامية كثيرة يُحارَب فيها الإسلام جهرةً وخفيةً، تحت أسماء وعناوين شتى: الرجعية، أو الأصولية، أو التطرف، أو الإرهاب، حتَّى غدا التمسك بآداب الإسلام كالحجاب للمرأة، واللحية للرجل، والحرص على شعائر الإسلام، كصلاة الفجر في المسجد، والدعوة إلى تحكيم شريعة الله في دنيا الناس، والتنادي بتوحيد كلمة الأمة تحت راية الخلافة، وإعادة «دار الإسلام» من جديد: كل ذلك من دلائل التطرف، ومداخل العنف والإرهاب. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أمام هذه المحن الضارية، والهجمات المتتالية، والضربات الباغية، ليس أمام دعاة الإسلام إلا التَّوكُّل على الله، يقفون على بابه، ويلوذون بجنابه، ويعتصمون بحبله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ليس أمامهم إلا أن يقولوا ما قال الإمام حسن البنا حين بغى عليه باغون، وافترى عليه مفترون: «سنستعدي على الباغين سهامَ القَدَر، ودعاء السَّحَر، وكلَّ أشعثَ أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه».

ليس أمام المستضعفين والمقهورين إذا أُغلقت في وجوههم الأبواب، إلا باب واحد لا يُغلق أبدًا، هو بابُ الله الكريم، يقرعونه

QaradawiBooks.com

بدعائهم وابتهالهم وتضرعهم، إلى مَنْ يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وينصر المظلوم المغلوب، يرفع دعوته فوقَ الغَمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول ﷻ: «**لأنصرنَّكِ ولو بعدَ حين**»[١].

قد يضحك الطُّغاة من دعواتهم ويسخرون، وقد يهزؤون باستغاثتهم ويتغامزون، وقد سمعنا أحدهم يقول للمعتقلين مستكبرًا مغرورًا: «هاتوا ربَّكم وأنا أحطه معكم في زنزانة!!» ثم كان مصيره أن صدمته سيارة فقطعته إرْبًا إرْبًا[٢].

لقد عوّدنا القَدَر الأعلى أن يسخر من هؤلاء الساخرين، فيجعل نهايتهم أسوأ النهايات، ويختم روايتهم بأقبح المشاهد، ولسان الحال يقول لكل طاغية منهم:

أتهزأُ بالدُّعاءِ وتزْدريه؟ ... وما يُدريكَ ما صنعَ الدُّعاءُ؟
سهامُ اللَّيْلِ لا تُخْطِي، ولكنْ ... لها أمدٌ، وللأمدِ انقضاءُ!
فيُمْسِكُها إذا ما شاء ربِّي ... ويرسلها إذا نَفَذَ القَضَاءُ[٣]!

---

(١) رواه أحمد (٩٧٤٣) وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والتِّرْمذي في الدعوات (٣٥٩٨) وقال: حسن. وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، وحسَّنه ألباني لغيره في التعليقات الحسان (٨٧١)، عن أبي هريرة.

(٢) هو حمزة البسيوني ضابط كان برتبة مقدم بكباش عام ١٩٥٤م، وهو قائد السجون الحربية حينذاك، وبقي قائدًا لها إلى محنة ١٩٦٥م، وكان هذا الضابط المأفون يحمل في صدره قلب وحش، وفي يده كرباج جلاد، وبين فكيه لسان شرشوح، لا دين له، ولا خلق. وقد طرد من الجيش في مطلع ثورة يوليو أيام حملات التطهير، ثم أعاده جمال عبد الناصر خصيصًا لتعذيب الإخوان.

(٣) ذكرها الأبشيهي من غير نسبة في المستطرف صـ ١١٧، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

سعة منزلة التَّوكُّل:

يقول ابن القيِّم: «ومنزلة التَّوكُّل أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسَعة متعلَّق التَّوكُّل، وكثرة حوائج العالَمين، وعموم التَّوكُّل، ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار...

فأهل السماوات والأرض... في مقام التَّوكُّل، وإن تباين متعلق توكّلهم».

ومن طريف ما ذكره: «أنَّ هناك مَن يتوكّل على الله في حصول الإثم والفواحش، فإنَّ أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله، وتوكُّلهم عليه. بل قد يكون توكُّلهم أقوى من توكّل كثير من أصحاب الطاعات. ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم ويُظفرهم بمطالبهم...

وأفضل التَّوكُّل: توكّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكُّل ورثتهم.

ثم الناس بعدُ في توكّلهم على حسب هِمَمهم ومقاصدهم، فمن متوكّل على الله في حصول المُلك، ومن متوكّل في حصول رغيف»[1].

* * *

(١) انظر: مدارج السالكين (١١٤/٢).

QaradawiBooks.com

الفصل الرابع

التَّوكُّل ورعاية الأسباب

التَّوكُّل الذي أمر به القرآن والسُّنَّة لا ينافي رعاية الأسباب، التي أقام الله عليها نظـام هذا الكون، وأجرى عليها سُـنَّته، ومضـتْ بها أقداره، وحكم بها شرعه.

يقول الأستاذ أبو القاسم القُشَيري في «رسالته»:

«واعلم أنَّ التَّوكُّل محله القلب، والحركـةُ بالظاهر لا تنافي التَّوكُّل بالقلب، بعدما تحقَّق العبد أن التقدير من قِبَل الله تعالى، فإن تعسَّر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره»[(١)].

واستدلَّ لذلك بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال: جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسـول الله، أَعْقِلُهَا وأتوكَّل؟ أو أُرْسِلُها وأتوكَّل؟ فقال ﷺ: «**اعقلها وتوكّل**»[(٢)].

وهذا نصٌّ حاسـم صريح فـي مراعاة الأسـباب، وأنها لا تنافي التَّوكُّل.

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٢٩٩/١).

(٢) رواه التِّرْمذي في صفـة القيامة (٢٥١٧) وقال: حديث غريب. وأبـو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

حكايات بعض الصُّوفِيَّة في إهمال الأسباب:

ومع ذلك روى القُشَـيْري رحمه الله حكايات كثيرة عن عدد من مشايخ الصُّوفِيَّة تركوا الأسـباب، بل رفضوها عمدًا، ودخلوا البادية المُقْفرة من غير زاد، متوكِّلين على الله تعالى، منكرين على مَن يتعلَّق بسبب، في أي وجه، وأية صورة.

ونقل الإمام الغزالي هـذه الحكايات في كتابه «منهـاج العابدين»؛ لتكون نموذجًا يُحتذى للسـائرين المريدين للآخرة، والسالكين للطريق إلى الله تعالى. كما ذكرها في «الإحياء» محاولًا تبريرها.

يقول بعضهم: حجَجتُ أربع عشرة حَجَّة حافيًا، على التَّوكُّل. فكان يدخل في رجلي شـوكة، فأذكر أنِّي قد اعتقدت على نفسـي التَّوكُّل، فأحكّها في الأرض وأمشي!

يعني أنَّه يرى إخراج الشـوكة المؤذية من رجلـه مناقضًا للتوكّل الذي اعتقده.

ويقول آخر: إنِّي لأستحيي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان، وقد اعتقدت التَّوكُّل ـ أي عزمت عليه ـ لئلَّا يكون شبعي زادًا أتزوَّد به!

وقال آخر: دخلتُ البادية مرَّة بغير زاد، فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة ـ القرية أو محطة الاسـتراحة ـ من بعيد، فسـررتُ بأنِّي قد وصلت، ثم فكرت في نفسي: أنِّي سكنت واتَّكلت على غيره تعالى، فآليت ألا أدخل المرحلة، حتَّى أُحمَل إليها. فحفرتُ لنفسـي فـي الرمل حفرة، وواريت جسـدي فيها إلى صدري! فسـمعوا صوتًا في نصف الليل عاليًا يقول: يا أهل البادية، إن لله تعالى وليًّا حبس نَفْسَـه في هـذا الرَّمْل فالحَقوه... فجاءني جماعة فأخرجوني وحمَّلوني إلى القرية!

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك: مَن وقع في بئر فنازعته نفسه أن يستغيث، فقال: أراد الله ألا أستغيث... ومرَّ رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال نسدَّ رأس هذه البئر لئلا يقع فيها أحد... وشرَعا يفعلان. وقد همَّ أن يصيح، ثم قال في نفسه: أصيح ـ أي أشكو ـ إلى مَن هو أقرب منهما! إلى الله سبحانه. وسكن لهذا الخاطر، فيما هو بعد ساعة، إذا هو بشيء جاء، وكشف عن رأس البئر، وأدلى رجله، وكأنَّه يقول له: تعلق بي. قال: فتعلَّقتُ به، فأخرجني، فإذا سبُع[١].

والحكايات من هذا النوع ـ الذي يعتبره الفقهاء إلقاءً بالنفس إلى التهلكة ـ كثيرة[٢].

مخالفة هذه الحكايات للسُّنَّة الصحيحة:

ولكن العارفين الراسخين يعلمون أنَّ السُّنَّة على خلاف ما يُحكى عن هؤلاء.

يقول شيخ القوم وسيدهم سهل بن عبد الله: مَن طعن في الحركة ـ يعني السعي والأخذ بالأسباب ـ فقد طعن في السُّنَّة، ومَن طعن في التَّوكُّل فقد طعن في الإيمان[٣].

وذلك أنَّ سُنَّة رسول الله ﷺ القولية والعملية والتقريرية الأخذ بالأسباب، والدعوة إلى مراعاتها، مع تعلق القلب بالله تعالى، مسبِّب الأسباب، وصاحب الخَلْق والأمر.

(١) قد يُعترض عليه بأنه ينبغي ألا يتعلق به حتى يتم توكله؛ لأنه لون من الأخذ بالأسباب!

(٢) انظر: الرسالة للقشيري (٢٩٨/١ ـ ٣١٠)، باب التوكل، ومنهاج العابدين صـ ٢٢٩ ـ ٢٤١.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٩٥/١٠).

QaradawiBooks.com

فهو يقول للأعرابي في شأن ناقته: «**اعقلها وتوكّل**»[١].

ويقول: «**لو توكّلتم على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»[٢]. وفيه إشارة إلى التسبُّب؛ لأنَّه لم يضمن لها الرواح بطانًا، إلا بعد أن غدت خماصًا، والغدو حركة وانتشار.

وأحاديثه ﷺ في الدعوة إلى العمل والكسب الحلال، عن طريق الزرع والغرْس، والصناعة والتجارة، والاحتراف ولو بالاحتطاب؛ كثيرة وشهيرة. وحسبنا منها قوله ﷺ: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وأنَّ نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده**»[٣]، وحديثه الآخر: «**إن قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فَسِيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتَّى يغرسَها، فليغرسْها**»[٤].

وقد رأيناه ﷺ يُعِدُّ العُدَّة، ويهيئ الأسباب في غزواته وسراياه، ويتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامة جيشه، والمحافظة على جنوده، ويبعث العيون والطلائع لمعرفة أخبار الأعداء، والتعرف على نقاط الضعف عندهم. وهذا بيِّن لمن قرأ سيرته، ودرس مغازيه ﷺ.

ومن روائع ما قرأناه في سُنَّته وسيرته ﷺ في الأخذ بالأسباب: استخدامه «أسلوب الإحصاء» منذ وقت مبكر من إقامة الدولة الإسلامية، أي بعد الهجرة إلى المدينة. فقد روى البخاري ومسلم عن

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٣.

(٢) سبق تخريجه صـ٢١.

(٣) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معديكرب.

(٤) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «**احصوا لي كم يلفظ بالإسلام**»[١]. حتَّى لفظَة «الإحصاء» استعملها.

وفي رواية للبخاري في «صحيحه» أنَّه قال: «**اكتبوا لي مَن يلفظ بالإسلام من الناس**». قال حذيفة: فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل[٢].

ويبدو أنَّ إحصاء الرجال القادرين على حمل السلاح كان هو المقصود بالقصد الأول.

فهو ليس ـ إذن ـ عدًّا شفهيًّا، بل هو إحصاء كتابي، لقوله: «**اكتبوا لي**». يُراد تدوينه وتسجيله، ليعرف منه عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع أن يواجِه بها أعداءه المتربّصين به، وما أكثرهم.

كما أنَّ من سيرته وسُنَّته ﷺ التخطيط للمستقبل، وإعداد العدة للغد، كما بيَّنا ذلك بأدلته في كُتُبنا من قبل[٣].

كما بيَّنا أنَّ ذلك لا يناقض مبدأ التَّوكُّل على الله تعالى.

الأخذ بالأسباب سُنَّة من سنن الأنبياء عامة:

وليست هذه سُنَّة محمد عليه الصلاة والسلام وحده، بل هي سُنَّة رُسُل الله وأنبيائه من قبله، كما هو بيِّن من قصص القرآن عنهم.

فهذا نوح عليه السلام يصنع الفلك كما أمره الله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، لتكون أداة الإنقاذ له ولمن آمن معه إذا جاء الطُّوفان،

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٩).

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠).

(٣) انظر على سبيل المثال كتابنا: الرسول والعلم صـ ٤٣ ـ ٤٨، نشر دار الصحوة، القاهرة، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وكان في قدرة الله أن يحجز الماء عنه، وعمَّن معه، أو يحملهم فوق الماء بغير سفينة، ولكن الله أراد أن يُعلِّمنا أن قدرته تعمل من خلال الأسباب التي أوجدها أيضًا. قال تعالى عن نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٤].

وهذا يعقوب عليه السلام يقول ليوسف بعد أن ذكر له رؤياه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، ونراه بعد ذلك يخاف على بنيه عند توجُّههم إلى مصر، فيوصيهم قائلًا: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وسواء أكان يخشى عليهم العَيْن ـ كما قيل ـ أو يخشى أمرًا آخر يتعلق بالسياسة، فقد أعطى الأسباب حقَّها، وترك النتائج لله تعالى، ولِحُكمِه الكونيّ في الخلْق، وهنا يكون التَّوكُّل حقًّا: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وهذا يوسُف الصِّدِّيق عليه السلام يضعُ لإنقاذ مصر من القحط والمجاعة خطَّة خمس عشرية، وقام هو على تنفيذها، أساسها زيادة الإنتاج في سنوات الخصوبة السبع، مع تقليل الاستهلاك، وخزن القمح في سنبله، إلا قليلًا مما يأكلون، ثم الاستهلاك بقدر وحساب ـ من المخزون ـ خلال سنوات الجدب، بحيث يكفي السَّبْعَ الشِّدادَ كلَّها، كما أشار إلى ذلك القرآن: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، وفي قوله: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، يفيد أن الاستهلاك مقدَّر ومحسوب، مثل التوزيع بالبطاقات ونحو ذلك،

QaradawiBooks.com

وفي قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، إشارة إلى استبقاء بعض الحبوب لتُسْتَخدَم بذورًا عندما يجيء الغيث ويبعث الله الماء. وإلَّا لم يكن للماء فائدة إذا انعدمت البذور.

وقد قام يوسُف بهذه المهمَّة، ونجَّى الله على يديه مصر وما حولها من البلاد، ببركة هذا التخطيط المحسوب، ولا يضير ذلك أن كان أساسه رؤيا صادقة، فالمهم أنَّ الرؤيا أفادت علمًا بمشكلة وأزمة، فطلبت حلًّا، وكانت خطة يوسف هي الحل، ولم يكن في ذلك ما ينافي التَّوكُّل على الله تعالى، كيف وقد قام عليه نبي مرسل، وسجَّله الله في أعظم كتبه؟

وهذا موسى عليه السلام حين سار بأهله من مَدْيَن، راجعًا إلى مصر، آنس من جانب الطور نارًا، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وسعى إلى موضع النار، ولم يجلس حتَّى يأتيه الخبر، أو الجذوة، اتكالًا على الله تبارك وتعالى.

ونجده عليه السلام حين سار ومعه فتاه ليلقى العبد الصالح ـ الخضر عليه السلام ـ عند مجمع البحرين، يصحب معه زاده وغداءه، ويقول لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. وحين أمره الله بالخروج من مصر قال له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣]، وذلك ليكون الليل ستارًا له من فرعون وملئه.

ويحدِّثنا القرآن عن داود فيقول: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۞ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]؛ فعملُه في صناعة الدروع

QaradawiBooks.com

السابغات، التي تحصِّن لابسيها وتحفظهم من بأس العدوِّ وضرباته، ولم يرَ القرآن عمل داود هذا مناقضًا للتوكّل على الله.

وقد أمر الله تعالى الصِّدِّيقة البتول مريم عليها السلام أن تهُزَّ بجذع النخلة ليتساقط عليها الرُّطَب، رعايةً للأخذ بالأسباب ظاهرًا، وإن كان الأمرُ كلُّه آيةً وكرامةً لمريم، قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦].

وفي ذلك يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ على الرَّحمنِ في الأمْرِ كُلِّه ... ولا ترغَبَنْ في العَجْزِ يومًا عَنِ الطَّلَبْ
ألـم تَـرَ أنَّ اللهَ قـال لمَرْيَـمٍ: ... وهُزِّي إليك الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ؟
ولو شـاء أنْ تَجْنِيَهُ من غيرِ هَزِّهِ ... جَنَتْه، ولكنْ كلُّ شيءٍ له سَبَبْ[1]

وفتية أهل الكهف الذين أثنى الله عليهم، وخلَّد ذكرَهم في كتابه، وقال: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣]، حين أوَوْا إلى الكهف حملوا معهم بعض النقود من «الوَرِق» ـ أي الفضَّة ـ ليستطيعوا بها شراء بعض ما يريدون، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]، ولم يكن ذلك منافيًا لتوكُّلهم على الله تعالى.

القرآن يأمر برعاية الأسباب:

وها هو القرآن يأمر المؤمنين من أمَّة محمد ﷺ فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١) ذكره الأبشيهي من غير نسبة في المستطرف صـ ٣٠٨.

QaradawiBooks.com

ويأمر بالصلاة المعروفة باسم: «صلاة الخوف» في الحرب، فيدعو إلى تقسيم المقاتلين إلى قسمين: قسم يُصلِّي وراء الإمام، وقسم في مواجهة العدو، ويوصي بأخذ الحَذَر والسلاح، حتَّى لا يهتبل العدو فرصة اشتغالهم بالصلاة فيميل عليهم ميلة واحدة. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

هذا في جانب الحرب والإعداد للأعداء.

وفي جانب الرزق، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، فهذا أمر بالمشي في مناكب الأرض.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]، فهذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة، وسعيٌ وانتشارٌ في الأرض بعد الصلاة.

وقد وصف الله تعالى رُوَّاد بيوته التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، فلم يصفهم بعطالة ولا

QaradawiBooks.com

بطالة، بل جعل لهم تجارة وبيعًا، فهم «رجال أعمال»، ولكن ذلك لا يلهيهم ولا يشغلهم عن ذكر الله، وأداء حق الله.

وقال تعالى في شأن الحج: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

جاء عن ابن عباس، أنَّ أناسًا من أهل اليمن كانوا يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكّلون! فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ ...﴾ الآية[١].

هَدْي الصحابة والتابعين في مراعاة الأسباب:

ومَن نظر في حال أصحاب رسول الله ﷺ ـ وهم خير قرون هذه الأمة وأفضل أجيالها ـ وجدهم يكدحون ويعملون لمعاشهم، ولم ينقص ذلك من توكّلهم على الله تعالى.

كان المهاجرون في مجموعهم أهل تجارة، وكان الأنصار أهل زرع.

ولما عرض سعد بن الربيع الأنصاري على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله وداره وأهله، قال له: بارك الله لك في مالك وأهلك ودارك، إنَّما أنا امرؤ تاجر، فدلوني على السوق[٢]!

وعمر بن الخطاب يقول بعد سماع حديث الاستئذان ثلاثًا من أبي موسى الأشعري، وشهادة أبي سعيد الخدري بتأكيده: ألهاني عنه الصفق بالأسواق[٣].

(١) رواه البخاري في الحج (١٥٢٣).
(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩)، عن أنس.
(٣) رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٣).

QaradawiBooks.com

وأبو بكر حينما بُويع بالخلافة، أراد أن يذهب إلى السوق على عادته يَقْتَاتُ لأهله، ويتَّجر ليكسب لهم ما يكفيهم. وهذا ـ كما يقول أبو طالب المكي ـ في أتمِّ أحوالــه، حين أُهِّل للخلافة، وأقيم مقــام النبوَّة، حتَّى اجتمع المسلمون، فكرهوا له ذلك. فقال: لا تشغلوني عن عيالي، فإنِّي إن أضعتهم كنت لما ســواهم أضيع. حتَّى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، لا وكْس ولا شَطَط[1].

وقال معاوية بن قُــرَّة: لقي عمر بن الخطاب ناسًــا من أهل اليمن، فقال: مَنْ أنتم؟ قالــوا: نحن المتوكِّلون. قال: بل أنتــم الـمُتَّكِلُون. إنَّما المتوكِّل الذي يُلْقِي حبَّه في الأرض، ويتوكّل على الله ﷻ[2].

ومن المشــهور عنه أنَّه رأى جماعة يقعدون في المسجد بعد صلاة الجمعة، فأنكر عليهم، وقال: لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة! إنَّما يرزق الله الناس بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠][3]؟

وقد حكوا عن شقيقٍ البَلْخي ـ وهو من أهل العبادة والزهد ـ أنه ودَّع صديقَه إبراهيم بن أدهم، لسفره في تجارة عزم عليها. ولم يلبث إلا مدَّة يسيرة، ثم عاد، ولقيه إبراهيم، فعجب لسرعة إيابه من رحلته، فسأله عمَّا رجع به قبل أن يتم غرضه، فقصَّ عليه قصَّة شهدها، جعلته يغيِّر وجهتَه ويُلغي رحلته، ويعود قافلًا.

---

(١) انظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١٧/٢)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل (١٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ذلك أنَّه نزل للراحة في الطريق، فدخل خَرِبــة يقضي فيها حاجته، فوجد فيها طائرًا أعمى كسيحًا لا يقدر على حركة، فرقَّ لحاله، وقال: من أين يأكل هذا الطائر الأعمى الكسيح في هذه الخربة؟ ولم يلبث أن جاء طائر آخر يحمل إليه الطعام ويمدُّه به، حتَّى يأكل ويشــبع، وظلَّ يراقبه عدة أيام وهو يفعل ذلك، فقال شَقيق: إن الذي رزق هذا الطائر الأعمى الكسيح في هذه الخربة لقادر على أن يرزقني! وقرَّر العودة.

وهنا قال له ابن أدهم: سبحان الله يا شقيق! ولماذا رضيتَ لنفسك أن تكون الطائر الأعمى العاجز الذي ينتظر عون غيره، ولا تكون أنت الطائر الآخر الذي يســعى ويكدح ويعود بثمرة ذلك على من حوله من العُمْي والمُقعَدين؟! أما علمتَ أن النبي ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[(١)]؟

فقام إليه شقيق وقبَّل يده وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق[(٢)]!

المحقِّقون يردُّون على معطّلي الأسباب:

الحقُّ أنَّ المُعْرِضين عن الأســباب بالكليَّة لا سند لهم من قرآن ولا سُــنَّة، ولا من عمل الصحابة وتابعيهم بإحســان. وهم فــي حاجة إلى الاعتذار عنهم ممَّا ارتكبوه، لا التأسِّي بهم فيما فعلوه!

ولو أنَّ المسلمين في خير القرون ســاروا على هذا النهج، ما انتصر لهم دين، ولا قامت لهم دولة، ولا تأسَّســت لهم حضارة، ولا مُكِّن لهم

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٣٥٠)، تحقيق مشهور بن حسن، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

في الأرض، فإنَّ هذا التوجُّه السلبي غريب على العقل الإسلامي، والروح الإسلامي، والنهج الإسلامي، الذي يعمل لتكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة.

والدليل على أنَّه ليس فضيلة محمودة، ولا فريضة مطلوبة: أنه لا يمكن تعميمه وطلبه من الناس كافَّة؛ لأنَّه غير موافق لشرع الله وأمره، ولا لسُنَّته الثابتة في ربط المسبَّبات بالأسباب.

ولذا أنكره فقهاء الأمة المتبوعون، وأئمتها المُعتَبَرون.

فهذا الإمام سفيان بن سعيد الثوري ـ وهو إمام في الفقه، وفي الحديث، وفي الزهد واليقين ـ يقول: العالِم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلًا للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار وكيلًا للفُسَّاق[1]!

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: «قيل: لا يستحق التَّوكُّل إلا مَن لم يخالط قلبه خوف من شيء البتة، حتَّى السبع الضاري، والعدو العادي، ولا مَن لم يَسْعَ في طلبِ رزقٍ أو مداواةِ ألمٍ! والحقُّ أنَّ مَن وَثِقَ بالله وأيقن أنَّ قضاءه عليه ماضٍ، لم يقدح في توكُّله تعاطيه الأسبابَ، اتباعًا لسُنَّته «تعالى» وسُنَّة رسوله، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المِغْفر، وأقعد الرماة على فم الشِّعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هُوَ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادَّخَرَ لأهله قُوتَهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١٦/٢).

QaradawiBooks.com

للذي سـأله: أعقل ناقتي أو أدعها؟ قال: «**اعْقِلْها وتوكَّل**»[١]. فأشار إلى أنَّ الاحتراز لا يدفع التَّوكُّل»[٢].

ردُّ ابن الجوزي على المعطِّلين للأسباب:

وممَّن نقد الصُّوفِيَّة في مسلكهم هذا نقدًا موضوعيًّا، وإن لم يخل من حرارة وشـدة: الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه الشـهير: «تلبيس إبليـس»، فقد ذكر حكاياتهم، وعقَّب عليهـا بالردِّ في ضوء الأصول الشرعية.

نقل رحمه الله عن أحمد بن أبي الحواري قال: سـمعت أبا سـليمان الداراني يقول: لو توكّلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان، ولا جعلنا لباب الدار غَلَقًا مخافة اللصوص.

وعن ذي النون المصري أنَّه قال: سافرتُ سنين، وما صحَّ لي التَّوكُّل إلا وقتًا واحدًا: ركبتُ البحر، فكسر المركب، فتعلَّقت بخشبة من خشب المركب، فقالت لي نفسـي: إن حكم الله عليك بالغرق، فما تنفعك هذه الخشبة؟ فخليتُ الخشبة، فطفت على الماء، فوقعت على الساحل!

أخبرنا محمد قال: سـألت أبا يعقوب الزيَّات عن مسألة في التَّوكُّل، فأخـرج درهمًا كان عنـده ثم أجابني، فأعطـى التَّوكُّل حقَّـه، ثم قال: استحييتُ أن أجيبك وعندي شيء.

وعلَّق ابن الجوزي على ذلك فقال: قلَّة العلم أوجبت هذا التخليط. ولو عرفوا ماهيّةَ التَّوكُّل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضادّ. وذلك

(١) سبق تخريجه صـ٤٣.

(٢) نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢١٢/١٠)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أنَّ التَّوكُّل اعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب، ولا ادِّخار المال. فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أي: قوامًا لأبدانكم. وقال ﷺ: «**نِعْمَ المال الصالح مع الرجل الصالح**»(١)، وقال ﷺ: «**إنَّك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس**»(٢).

قال: واعلم أنَّ الذي أمر بالتَّوكُّل أمر بأخذ الحذر، فقال: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وشاور طبيبين، واختفى في الغار. وقال: «**مَنْ يحرسني الليلة؟**»(٣)، وأمر بغلق الباب. وفي «الصحيحين» من حديث جابر، أن النبي ﷺ قال: «**أغلق بابك**»(٤). وقد أخبرنا أنَّ التَّوكُّل لا ينافي الاحتراز. أي في قوله: «**اعقلها وتوكّل**»(٥).

وقال الإمام ابن عقيل: يظنُّ أقوام أنَّ الاحتياط والاحتراز ينافي التَّوكُّل، وأنَّ التَّوكُّل هو إهمال العواقب واطِّراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط، الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين،

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حِبَّان في الزكاة (٣٢١٠)، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٩٩)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦)، عن عمرو بن العاص.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٠)، عن عائشة.

(٤) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٠)، ومسلم في الأشربة (٢٠١٢).

(٥) سبق تخريجه صـ٤٣.

QaradawiBooks.com

ولم يأمر الله بالتَّوكُّل إلا بعد التحرُّز واستفراغ الوُسع في التحفُّظ. فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحًا في التَّوكُّل لما خصَّ الله به نبيَّه حين قال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤْخذ التحفُّظ والتَّحرز من العدو؟ ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم واجتهادهم، حتَّى نصَّ عليه، وجعله عملًا في الصلاة نفسها، وهي أخصُّ العبادات. فقال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وبيَّن عِلّة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، ومَن علم أن الاحتياط هكذا لا يقال: إنَّ التَّوكُّل عليه ترك ما علم. لكن التَّوكُّل التفويض فيما لا وُسع فيه ولا طاقة. قال عليه الصلاة والسلام: «**اعقلها وتوكّل**»[1]. ولو كان التَّوكُّل ترك التحرز لخُصَّ به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال، وهي حالة الصلاة.

وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فالتَّوكُّل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإنَّ موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. خرج.

ونبينا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رضي الله عنه بسدِّ أثقاب الغار. وأعطى القومُ التَّحرزَ حقَّه، ثم توكّلوا، وقال عزَّ وجلَّ في باب الاحتياط: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، وقال: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]. وهذا لأنَّ الحركة للذَبِّ عن النفس استعمالٌ لنعمة الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكما أنَّ الله تعالى يريد إظهار نعمه المبداة، يريد إظهار ودائعه، فلا وجه لتعطيل ما أودع، اعتمادًا على ما جاد به. لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده.

وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عُدّة وأسلحة تدفع عنها الشرور، كالْمِخلب والظُّفر والنَّاب، وخلق للآدمي عقلًا يقودُه إلى حمل الأسلحة، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع. ومَن عَطَّل نعمة الله تعالى بترك الاحتراز، فقد عَطَّل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جُوعًا أو مرضًا. ولا أبله ممَّن يدَّعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء.

إنَّما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكّل في الكسب، وقلبه ساكن مُفوِّض إلى الحقِّ، منع أو أعطى؛ لأنَّه لا يرى إلَّا أنَّ الحقَّ تعالى لا يتصرَّف إلَّا بحكمة ومصلحة، فمنعُه عطاءٌ في المعنى. وكم زيَّن للعَجَزة عَجْزَهم، وسوَّلت لهم أنفسهم أن التفريط توكّل، فصاروا في غرورهم بمثابة مَن اعتقد التهور شجاعة، والخور حزمًا. ومتى وُضِعت أسباب فأُهمِلت كان ذلك جهلًا بحكمة الواضع، مثل: وضع الطعام سببًا للشبع، والماء للرِيّ، والدواء للمرض. فإذا ترك الإنسان ذلك إهوانًا بالسبب، ثم دعا وسأل، فربَّما قيل له: قد جعلنا لعافيتك سببًا، فإذا لم تتناوله كان إهوانًا لعطائنا، فربَّما لم نعافِك بغير سببٍ لإهوانك[1] للسبب. وما هذا إلا بمثابة مَن بيَّن قَرَاحه (مزرعته) وماءُ السَّاقية رفَسَه بمِسْحاة، فأخذ يُصلِّي صلاة الاستسقاء طلبًا للمطر، فإنه لا يُستحسن منه ذلك شرعًا ولا عقلًا اهـ.

(١) كذا بالمطبوع في الموضعين (إهوانا ـ وإهوانك) أي: إهانة واحتقارًا واستخفافًا، وقد جاء به على الأصل من غير إعلال.

QaradawiBooks.com

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإنْ قال قائلٌ: كيف أحترزُ مع القدر؟ قيل له: وكيف لا تحترز مع الأوامر من المقدِّر؟ فالذي قدَّر هو الذي أمر، وقد قال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

عن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يُصلِّي على رأس جبل، فأتاه إبليس، فقال: أنت الذي تزعم أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقَدَر؟ قال: نعم. قال: فألقِ نفسَك من الجبل، وقل: قُدِّر عليَّ! فقال: يا لعين، الله يَختبِر العباد، وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى.

قال ابن الجوزي: وفي معنى ما ذكرنا من تلبيسه عليهم في ترك الأسباب أنَّه قد لبَّس على خلق كثير منهم بأنَّ التَّوكُّل ينافي الكسب.

عن محمد بن عبدٍ الرَّازي قال: سأل رجل أبا عبد الله بن سالم، وأنا أسمع: أنحن مُستعبَدون بالكسب أم بالتَّوكُّل؟ فقال: التَّوكُّل حال رسول الله ﷺ، والكسب سُنَّة رسول الله ﷺ، وإنَّما سُنَّ الكسب لمن ضعف عن التَّوكُّل، وسقط عن درجة الكمال التي هي حاله، فمن أطلق التَّوكُّل، فالكسبُ غيرُ مباحٍ له بحال إلا كسب معاونة، لا كسب اعتماد عليه، ومَن ضعف عن حال التَّوكُّل التي هي حال رسول الله ﷺ أبيح له طلب المعاش في الكسب، لئلا يسقط عن درجة سُنَّته حين يسقط عن درجة حاله.

وعن يوسف بن الحسين قال: إذا رأيتَ المريد يشتغل بالرُّخَص والكسب، فليس يجيء منه شيء.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قلت: هذا كلام قوم ما فهموا معنى التَّوكُّل، وظنوا أنَّه ترك الكسب، وتعطيل الجوارح عن العمل، وقد بيَّنا أنَّ التَّوكُّل فعل القلب، فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكِّل لكان الأنبياء غير متوكِّلين؛ فقد كان آدم عليه السلام حرَّاثًا، ونوح وزكريا

QaradawiBooks.com

نجَّاريْن، وإدريس خيَّاطًا، وإبراهيم ولوط زارعَيْن، وصالح تاجرًا. وكان سليمان يعمل الخُوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال نبينا ﷺ: «**كنتُ أرعى غنمًا لأهل مكة بالقراريط**»[١]. فلما أغناه الله ﷻ بما فرض له من الفيء لم يحتج إلى الكسب. وقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة رضوان الله تعالى عليهم بزَّازين. وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مِهْران بزَّازَيْن. وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز خزَّازين[٢]، وكذلك أبو حنيفة. وكان سعد بن أبي وقاص يبري النَّبْل، وكان عثمان بن طلحة خيَّاطًا. وما زال التابعون ومَن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب.

وعن عطاء بن السائب قال: لما استُخْلِف أبو بكر رضي الله عنه أصبح غاديًا إلى السوق، وعلى رقبته أثواب يتَّجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: أين تريد؟ فقال: السوق. قالا: تصنع ماذا، وقد وَلِيتَ أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أُطعم عيالي[٣]؟

وذكر ابن سعد بسنده، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، قال: لما استُخْلِف أبو بكر جعلوا له ألفين. فقال: زيدوني فإنَّ لي عيالًا، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة[٤].

---

(١) رواه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩)، عن أبي هريرة.

(٢) البزاز: من يعمل في بيع البز، وهو نوع من الثياب، والخزاز: من يعمل في الخزِّ، وهي ثياب تُنسج من صوف وإبريسم.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١٨٤/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م. وقال ابن حجر في فتح الباري (٣٠٥/٤): رجاله ثقات مرسلًا، عن عطاء بن السائب.

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (١٨٥/٣).

QaradawiBooks.com

قال ابن الجوزي رحمه الله: قلت: لو قال رجلٌ للصُّوفيَّة: من أينَ أطعمُ عِيَالي؟ لقالوا: قد أشركت! ولو سُئلوا عمَّن يخرج إلى التجارة، لقالوا: ليس بمتوكِّل ولا موقن؛ وكلُّ هذا لجهلهم بمعنى التَّوكُّل واليقين. ولو كان أحدٌ يغلق عليه الباب ويتوكَّل لقرب أمر دعواهم، لكنهم بين أمرين: أمَّا الغالب من الناس، فمنهم مَن يسعى إلى الدنيا مستجديًا، ومنهم مَن يبعث غلامه، فيدور بالزِّنْبِيل فيجمع له. وإمَّا الجلوس في الرباط في هيئة المساكين، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح، كما لا يخلو الدكان من أن يُقصد للبيع والشِّراء!

عن إبراهيم بن أدهم قال: كان سعيد بن المسيّب يقول: مَن لزم المسجد، وترك الحرفة، وقبل ما يأتيه، فقد ألحف في السؤال.

وكان أبو ترابٍ يقول لأصحابه: مَن لبس منكم مُرَقَّعة فقد سأل، ومَن قعد في خَانْقاه أو مسجدٍ فقد سأل.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وقد كان السَّلَف ينهون عن التعرض لهذه الأشياء ويأمرون بالكسب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضُح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالًا على المسلمين[1].

وعن محمد بن عاصم قال: بلغني أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى غلامًا فأعجبه، سأل عنه: هل له حرفة؟ فإن قيل: لا، قال: سقط من عيني[2].

(١) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٢٥/١)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة (٣٠٠٥).

QaradawiBooks.com

وعن سعيد بن المسيّب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في تجْر الشام، منهم طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد (وهما من العشرة المبشرة بالجنَّة).

وسُئل أحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو في مسجده وقال: لا أعمل شيئًا حتَّى يأتيَني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم. واستدلَّ بالحديث المعروف في التَّوكُّل، وفيه ذِكْر الطَّيْر تغدو خِماصًا[1]، فذكر أنَّها تغدو في طلب الرزق. قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، ولنا القدوة بهم.

قال ابن الجوزي: وقد ذكرنا فيما مضى عن أحمد، أنَّ رجلًا قال له: أريد الحج على التَّوكُّل؟ فقال له: فاخرج في غير القافلة! قال: لا. قال: فعلى جراب الناس توكَّلت!

وروى الخلَّال عن أبي بكر المَرُّوذي، قال: قلت لأبي عبد الله: هؤلاء المتوكِّلة يقولون: نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ! فقال: هذا قول رديء؛ أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩]، ثم قال: إذا قال: لا أعمل، وجيء إليه بشيء قد عُمِل واكتُسِب، لأيِّ شيء يقبله من غيره[2]؟!

(١) سبق تخريجه صـ٢١.

(٢) رواه أبو بكر الخلال في الحثِّ على التجارة والصناعة (١٠٦)، نشر دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٠٧هـ.

QaradawiBooks.com

قال الخـلَّال: وأخبرنا عبد الله بـن أحمد قال: سـألت أبي عن قوم يقولون: نتوكَّل على الله ولا نكتسب! فقال: ينبغي للنَّاسِ كلِّهم يتوكَّلون على الله. ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، هذا قولُ إنسانٍ أحمقَ[١].

قال الخَـلَّال: وأخبرني محمد بـن عليٍّ: قال صالح: إنَّه سـأل أباه ـ أحمد بن حنبل ـ عـن التَّوكُّل، فقال: التَّوكُّل حسـنٌ، ولكن ينبغي أن يكتسب ويعمل حتَّى يغنيَ نفسه وعياله، ولا يترك العمل.

قال: وسُـئل أبي وأنا شـاهد عن قوم لا يعملـون ويقولون: نحن المتوكِّلون، فقال: هؤلاء مبتدعون[٢].

قال الخلَّال: وأخبرنا المَـرُّوذي[٣] أنَّه قال لأبـي عبد الله: إنَّ ابن عيينة كان يقول: هم مبتدعة. فقال أبو عبد الله: هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا[٤]!

وقال الخلَّال: وأخبرنا المرُّوذي، قال: سـألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيتـه، وقال: أجلس وأصبر وأقعد فـي البيت، ولا أُطلع على ذلك أحدًا! فقال: لو خرج، فاحترف كان أحبَّ إليَّ، فإذا جلس خفت أن يُخرجه جلوسـه إلى غير هذا. قلت: إلى أيِّ شيء يخرجه؟ قال: يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يُرسَل إليه[٥].

---

(١) الحث على التجارة والصناعة والعمل للخلال (١٠٧).

(٢) المصدر السابق (١٠٩).

(٣) في الموضعين في المطبوع الذي بيـن أيدينا: المروزي بالـزاي، والمثبت الصواب، وهو أحمد بن محمد بن الحجاج، أبو بكر المروذي، عالم بالفقه والحديث، كان أجلَّ أصحاب الإمام أحمد، خصيصًا بخدمته. وهو منسوب إلى مَرْو الرُّوذ.

(٤) المصدر السابق (١١٠).

(٥) المصدر السابق (١٢٠).

QaradawiBooks.com

قال الخلَّال: وحدَّثَنا أبو بكر المرُّوذي، قال: سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إنِّي في كفاية. قال: الزم السوق تصل به الرَّحم وتعود به على عيالك[١] (أي: إنَّ الإمام أحمد رحمه الله طلب من الرجل السعي، وإن كان عنده كفايته، ليعود بالنفع على غيره، وبخاصَّة أرحامه).

وقال لرجل آخر: اعملْ وتصدَّق بالفضل على قرابتك.

وقال أحمد بن حنبل: قد أمرتهم ـ يعني: أولاده ـ أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرَّضوا للتجارة.

قال الخلَّال: وأخبرني محمد بن الحسين، أنَّ الفضل بن محمد بن زياد حدَّثهم قال: سمعتُ أبا عبد الله يأمر بالسوق ويقول: ما أحسن الاستغناء عن الناس[٢].

وروى الخلَّال، عن أحمد بن حنبل قال: أحبُّ الدراهم إليَّ درهم من تجارة، وأكرهها عندي الذي من صلة الإخوان[٣].

قال ابن الجوزي: وكان إبراهيم بن أدهم يحصد، وسلمان الخوَّاص يلقط، وحذيفة المرعشي يضرب اللَّبِن[٤].

وقد اعتذر لهم أبو حامد الغزالي فقال: لا يجوز دخول المفازة بغير زاد إلا بشرطين:

---

(١) الحث على التجارة والصناعة (١).

(٢) المصدر السابق (٣، ٤).

(٣) المصدر السابق (٩).

(٤) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ٢٤٧ ـ ٢٥٣، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

أحدهما: أن يكون الإنسان قد راضَ نفسَه حيث يمكنه الصَّبر عن الطعام أسبوعًا ونحوه.

والثاني: أن يمكنه التقوُّت بالحشيش، ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدمي بعد أسبوع أو ينتهي إلى حِلَّة[١] أو حشيشٍ يجتزئ[٢] به وقته[٣].

وعلَّق ابن الجوزي على الغزالي بقولـه: «أقبح ما في هذا القول أنَّه صدر من فقيه! فإنَّه قد لا يلقى أحدًا، وقد يضلُّ، وقد يمرض، فلا يصلح له الحشـيش، وقد يلقى مَن لا يطعمه، ويتعرَّض بمن لا يُضيِّفه، وتفوته الجماعة قطعًا، وقد يموت، ولا يليه أحد؛ أي: لا يلي أمر تلقينه وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه... إلخ.

ثم قد ذكرنا ما جاء في الوحدة ـ أي: من النَّهى ـ ثم ما المخرج إلى المحن، إن كان يعتمد فيها على عادة أو لقاء شـخص والاجتزاء بالحشيش؟ ومَن فعل هذا من السَّـلَف؟ وكأن هؤلاء القوم يجزمون على الله سـبحانه أن يرزقهم في البادية، ومَن طلب الطعام في البرِّيَّة فقد طلب ما لم تجرِ به العادة. ألا ترى أنَّ قوم موسى عليه الصلاة والسلام لما سألوا من بقلها وقِثَّائها وفومها وعدسـها وبصلها، أوحى الله إلى موسـى أن ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: ٦١]، وذلك أن الذي طلبوه في الأمصار، فهؤلاء القوم على غاية الخطأ في مخالفة الشـرع والعقـل والعمل بموافقات النفس»[٤].

---

(١) الحلة: القوم النزول.

(٢) بالمطبوعة التي بين أيدينا: يرجى، والمثبت من إحياء علوم الدين (٢٦٦/٤) ومعنى يجتزئ أي يكتفي به.

(٣) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ٢٦٧.

(٤) السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

ابن القيِّم يرد على نفاة الأسباب، وصلتها بالتَّوكُّل:

وممَّن دخل هذه المعركة بقوَّة: المحقق ابن القيِّم، وذلك في شرحه لـ «منازل السائرين» للهروي، الذي وصف الدرجة الثانية للتوكُّل بأنَّها: «التَّوكُّل مع إسقاط الطلب، وغضّ العين عن السبب، اجتهادًا في تصحيح التَّوكُّل».

معناه: أنَّه يعرض عن الاشتغال بالسبب، لتصحيح التَّوكُّل بامتحان النفس.

قال: «وهذا الذي أشار إليه، مذهب قوم من العُبَّاد والسالكين، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد، ويرى حمل الزاد قدحًا في التَّوكُّل. ولهم في ذلك حكايات مشهورة، وهؤلاء في خفارة صدقهم، وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين، ومع هذا فلا يمكن بشرًا البتة تركُ الأسباب جملة.

فهذا إبراهيم الخوَّاص كان مجرِّدًا في التَّوكُّل يدقِّق فيه، ويدخل البادية بغير زاد. وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض. فقيل له: لِمَ تحمل هذا، وأنت تمنع من كلِّ شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقص من التَّوكُّل؛ لأنَّ لله علينا فرائض. والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد، فربما تخرَّق ثوبه. فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته، فتفسد عليه صلاته، وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته، وإذا رأيتَ الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته.

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب؟ أوَليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال على أعلامها إذا خفيت عليه من الأسباب؟

فالتجرُّد من الأسباب جملةً ممتنعٌ عقلًا وشرعًا وحسًّا.

QaradawiBooks.com

نعم، قد تعرض للصادق أحيانًا قوَّةُ ثقةٍ بالله، وحالٌ مع الله تحمله على ترك كلِّ سبب مفروض عليه، كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة. ويكون ذلك الوقت بالله لا به، فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله، ولكن لا تدوم له هذه الحال، وليست في مقتضى الطبيعة، فإنَّها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء، فحُمِل عليها، فإذا استدعى مثلها وتكلَّفها لم يُجَب إلى ذلك. وفي تلك الحال: إذا ترك السبب يكون معذورًا لقوَّة الوارد، وعجزه عن الاشتغال بالسبب، فيكون في وارده عون له، ويكون حاملًا له، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المُحال.

وكلُّ تلك الحكايات الصحيحة التي تُحكَى عن القوم، فهي جزئيَّة حصلت لهم أحيانًا، ليست طريقًا مأمورًا بسلوكها، ولا مقدورة، وصارت فتنة لطائفتين:

ـ طائفة ظنتها طريقًا ومقامًا، فعملوا عليها، فمنهم مَن انقطع. ومنهم مَن رجع، ولم يمكنه الاستمرار عليها، بل انقلب على عقبيه.

ـ وطائفة قدحوا في أربابها، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل، مدَّعين لأنفسهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك، ولا أخلَّ بشيء من الأسباب. وقد ظاهرَ رسول الله ﷺ بين درعين يوم أُحُد، ولم يحضر الصف قط عريانًا، كما يفعله مَن لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلًا مشركًا على دين قومه، يدله على طريق الهجرة. وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت سنة، وهو سيد المتوكِّلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حَجٍّ أو عُمْرة، حمل الزاد والمزاد، وجميع أصحابه،

QaradawiBooks.com

وهم أولو التَّوكُّل حقًّا، وأكمل المتوكِّلين بعدهم: هو مَن اشتمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم. فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها، بها يُعلم صحيحها من سقيمها. فإنَّ هممهم كانت في التَّوكُّل أعلى من همم مَن بعدهم. فإنَّ توكَّلَهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبدَ الله في جميع البلاد، وأن يوحِّده جميع العباد، وأن تُشرق شموسُ الدِّين الحقِّ على قلوب العباد، فملؤوا بذلك التَّوكُّل القلوبَ هدًى وإيمانًا، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبَّت رياح رَوْح نسمات التَّوكُّل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينًا وإيمانًا، فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدُهم قوة توكُّله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي، فيجعله نُصب عينيه، ويحمل عليه قويُّ توكُّلِه»[1].

عمارة الأرض مقصد شرعي وضرورة للأمة:

ثم هنا أمر مهم أغفله الصُّوفِيَّة الذين اعتقدوا التكسب والاحتراف منافيًا للتوكُّل، هذا الأمر هو: مراعاة مقاصد الشرع من المكلَّفين من نوع البشر.

فقد ذكر الإمام الراغب الأصفهاني: أنَّ هذه المقاصد تتمثل في ثلاثة:

الأوَّل: العبادة لله، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الثاني: الخلافة عن الله، وإليها يشير قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) مدارج السالكين (٢/١٣٣ ـ ١٣٥).

QaradawiBooks.com

والثالث: العمارة للأرض، وإليها يشير قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وعمارة الأرض: بإصلاحها وإحيائها وإشاعة الحياة والنماء فيها، حتَّى يكون فيها جنَّات من نخيل وأعناب، وحدائق ذات بهجة، وثمر يُنظر إلى ينعه، ويؤْكل منه، ويؤْخذ حقُّه يومَ حصاده، وأنعام وخيل، وأنهار وديار، وصناعة وتجارة، إلى آخر ما لا بد للحياة منه.

وهذا عمل يجب أن يتعاون الناس فيه، ويقوم كلٌّ بما يُمكنه من جهد، ولا يجوز أن يعمل البعض، ويظل الآخرون كَلًّا عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون. فهذا ليس من العدل.

فالمتعطِّل عن الكسب والكدح في الحياة عالة على غيره، فما لم يكن عاجزًا عن الكسب، أو متفرِّغًا لطلب علم نافع، فهو مذموم، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

إنَّ الإنسان المثالي في النصرانية هو «الراهب» الذي يعتزل الحياة، فلا يعمل لها، ولا يأكل من طيباتها، ولا يستمتع بزينة الله فيها، حتَّى الزواج يُحرِّمه على نفسه.

ولكنَّ الإنسان المثالي في الإسلام هو الذي يجمع الحسنَتَيْن، ويعمل للدارين، فيعمل لدنياه كأنَّه يعيش أبدًا، ويعمل للآخرة كأنَّه يموت غدًا، كما جاء ذلك عن الصحابة.

إنَّ الكسب والعمل الدنيوي ليس مجرَّد أمر مباح، بل هو مطلوبٌ طلبَ استحباب أو طلب وجوب، إذا نظرنا إلى ضرورته للمجتمع والأمة.

وهذا ما نبَّه عليه الإمام الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في كتابه القيم: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» فقال تحت عنوان: «وجوب التكسُّب»:

QaradawiBooks.com

«التكسُّب في الدنيا، وإن كان معدودًا من المباحات من وجه، فإنَّه من الواجبات من وجه، وذلك أنَّه لما لم يكن للإنسان الاستقلال بالعبادة، إلا بإزالة ضروريات حياته، فإزالتها واجبة؛ لأنَّ كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه.

وإذا لم يكن له إلى إزالة ضروریاته سبيلٌ إلا بأخذ تعبٍ من الناس، فلا بدَّ إذن أن يُعوِّضهم تعبًا من عمله، وإلا كان ظالمًا، فمَن توسَّع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك، فلا بدَّ أن يعمل لهم عملًا بقدر ما يتناوله منهم، وإلا كان ظالمًا لهم، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها، فمن رضي بقليل من عملهم، فلم يتناول من دنياهم إلا قليلًا، يُرضَى منه بقليل من العمل... ومَن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعًا، فإنه لم يأتمر لله تعالى في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ولم يدخل في عموم قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١]، ولهذا ذُمَّ مَن يدَّعي التَّصَوُّف فيتعطَّل عن المكاسب، ولم يكن له علمٌ يؤخذ منه، ولا عملٌ صالحٌ في الدِّين يُقتدَى به. فإنه يأخذ منافعَ النَّاس ويُضَيِّق عليهم معاشَهم، ولا يردُّ إليهم نفعًا، فلا طائل في مثلهم إلا بأن يكدِّروا المَشَارع (المياه)، ويُغْلُوا الأسعار.

ومن الدلالة على قبح فِعْل مَن هذا صنيعه: أنَّ الله تعالى ذمَّ مَن يأكل مال نفسه إسرافًا وبدارًا، فما حال مَن يأكل مال غيره على ذلك، ولا ينيلهم عوضًا، ولا يرد عليهم بدلًا؟!»[1].

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني صـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

وقال في موضع آخر: «مَن تعطَّل وتبطَّل فقد انسلخ من الإنسانيَّة، بل من الحيوانيَّة، وصار في عداد الموتى»[١].

ونقل العلامة المناوي في كتابه: «فيض القدير» عن بعض العارفين من الصُّوفِيَّة قوله: حكم الفقير «أي الصوفيِّ» الذي لا حِرْفة له كالبومة الساكنة في الخراب ليس فيها نفع لأحد!

وقال العارف الخوَّاص: الكامل مَن يسلِّك الناس (يدلهم على سلوك الطريق) وهم في حرفهم[٢]. وهذا هو التَّصَوُّف السليم، والصراط المستقيم.

إشاعة السلبيَّة في دنيا المسلمين:

وأحبُّ أن أذكر هنا أنَّ الصُّوفِيَّة لم يدْعوا الناس جميعًا إلى توكُّلِهم هذا، بل دعوا إلى ذلك مَن زعموا أنَّهم خواص الناس والأقوياء منهم. وقالوا: إذا شكا الصُّوفيّ الجوع بعد خمسة أيام، فألزِموه السوق، ومُروه بالعمل والكسب.

ولكن خطر هذه الأفكار أنَّها شاعت في دنيا المسلمين، وأنشأت جوًّا من السلبية، وإغفال سنن الله، وإهمال أمر الحياة بين جماهير المسلمين، وباتت هذه الأدبيات «المخدِّرة» هي القوت اليومي لعقول العوامِّ في ديار الإسلام، وكانت من أسباب التخلُّف الذي جعل المسلمين في مؤخِّرة الأمم، وقد كانوا في طليعة قافلة الحضارة عدة قرون.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ٢٦٩.

(٢) فيض القدير للمناوي (٢/٢٩٠)، شرح حديث: «إنَّ الله يحب المؤمن المحترف». نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

QaradawiBooks.com

ومن المؤسـف: أن نجد في عصور التخلف ـ التي تراجع فيها الفكر الإسلامي الصحيح، ليحل محله الفكر الخرافي، أو الفكر المنحرف ـ قد ترعرعت في الجو الديني ـ الشعبي خاصة ـ أفكار وأفهام غير صحيحة ولا مستقيمة مع منهج الإسلام الكلي، ولا مع أدلته الجزئية، ولا مع مقاصده الشرعية، واتخذ منها خصوم الاتجاه الإسـلامي تُكَأة للطعن في الإسلام نفسه، وفي كلِّ دعوة تنادي بالرجوع إليه عقيدة وحضارة ومنهاج حياة.

ومن ذلـك: اعتبار «الزهد» رفضًـا للدنيا، واعتبار «التَّـوكُّل» رفضًا للأسباب، اعتمادًا على شبهات واهية، اعتبروها أدلَّة مُحْكَمة؛ لأنَّ بعض الصُّوفية استدلُّوا بها.

استدلالات مردودة:

فقد اسـتدلُّوا هنا بموقف الخليل إبراهيم حين أُلقي في النار، فسأله جبريل: أَلَكَ حاجـةٌ؟ فقال: أمَّا إليك فـلا! فاعتبروا هـذا إعراضًا عن الأسـباب. والحقُّ أنَّ هذه القصة لـم يصح بها سـند[1]، ولو صحَّت، فالواضح: أنَّ الأسباب هنا قد انقطعت، ولم يبق إلا الله وحده، وتوسيط جبريل هنا لا ضرورة له، فعلمه تعالى بحال الخليل، يغني عن توسـيط جبريل، وكفى الخليل عليه الصلاة والسلام أنَّه لم يفتأ منذ أُلقي في النار يقول: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل. وهذا ما جاء في «الصحيح»، عن ابن عباس[2].

واستدلُّوا بموقف آخر للخليل عليه السلام، حين ترك هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، وتـرك عندهما جرابًا فيه تمرٌ، وسِـقَاءً فيه ماء، فلمَّا

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٨/ ٤٦٧)، من طريق معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض الصحابة موقوفا عليهم، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٤).

QaradawiBooks.com

تبعته هاجر، وقالت له: إلى مَن تَدَعُنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيتُ بالله[١]. وهذا كان يفعله بأمر الله ووحيه، كما قال الحافظ ابن رجب[٢].

وفي رواية لهذه القصة في البخاري: أنَّ إبراهيم حين ترك أُم إسماعيل وابنها وقفَّى منطلقًا، تبعته، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيِّعنا. ثم رجعت[٣]. وما كان بأمر الله ووحيه، يجب أن يُطاع تعبُّدًا، ولو لم يُعرف معناه ووجهه، كأفعال الخضر عليه السلام، ولكن لا يُقاس عليها. فلو أنَّ رجلًا وضع امرأته وطفلها الرضيع في برِّيَّة وتركهما، لكان مسيئًا.

واستدلوا بما ذكرنا قبل من حديث: «**لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[٤]، وقد نبَّهنا من قبل إلى ما ذكره الإمام أحمد وغيره: أنَّ في الحديث إشارةً إلى السَّعي والتسبُّب.

وقال بعض العلماء: إنَّه سعي، ولكنَّه سعيٌ يسير، والسعي اليسير لا ينافي التَّوكُّل. والحق أنَّه السعي الممكن لهذه الطير، فليس عندها سعي أكثر منه، فكلُّ ما تملكه هو الغدو والانتشار. وبعضها يطير مسافات طويلة من أجل رزقه.

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٥)، عن ابن عباس موقوفًا. قال ابن كثير: هذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة، وكأنَّه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات. انظر: البداية والنهاية (٣٦١/١)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٥٠٣/٢)، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤)، عن ابن عباس.

(٤) سبق تخريجه صـ٢١.

QaradawiBooks.com

واستدلُّوا ببعض الأقيسة الفاسدة التي ذكرها بعض الشعراء، كقول القائل:

جرى قلمُ القَضَاءِ بما يكونُ فسِيَّانِ التحرُّك والسُّكُونُ
جنونٌ منكَ أن تسعى لرزقٍ ويُرْزَقُ في غِشَاوته الجَنِينُ[1]!

وهذا الكلام باطل مردود، فإنَّ جريان قلم القضاء بما يكون، لا يقتضي التسوية بين الحركة والسكون. فإنَّ مما جرى به قلم القضاء أن في الحركة بركة، وأن في الجمود هلكة، وأن مَن جَدَّ وجد، ومَن زرع حصد، وأن قلم القضاء كما يجري بالمسبَّبات يجري بأسبابها.

وقد سئل النبي ﷺ عن الأدوية والرُّقى والتقاة: هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[2]. وهذا الجواب من روائع الكلم النبوي الذي يجب أن يُعلَّم للناس ويُشاع بين المسلمين. وهو: أن نردَّ قدر الله بقدر الله، كما في هذا الحديث، ونفرَّ من قدر الله إلى قدر الله، كما قال عمر[3]. وندفع الأقدار بعضها ببعض، كما نقل ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلاني: ليس الرجل مَن يستسلم للقدر، إنَّما الرجل من ينازع القدر بالقدر[4]!

(١) هو أبي الفرج بن هندو كما في خاص الخاص للثعالبيِّ صـ ٧٤، تحقيق حسن الأمين، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

(٢) رواه أحمد (١٥٤٧٢) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والتِّرْمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزامة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩).

(٤) العبودية لابن تيمية صـ ٥٥، تحقيق محمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٧، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وأمَّا جعْله السعيَ للرزق جنونًا، فهو اتِّهام لكثير من الأنبياء ـ مثل سيدنا داود وسيدنا موسى، وسيدنا رسول الله ـ وللصحابة الكرام، وللعلماء الأعلام، الذي اشتهروا بحرفهم ـ مثل: الخصَّاف، والقفَّال، والبزَّار، والبزَّاز، والجصَّاص، وأمثالهم ـ واتهام هؤلاء جميعًا بالجنون لا يقوله إلا مجنون!

وقوله: ويرزق في غشاوته الجنين، يعني قياس الإنسان البالغ القادر الراشد على الجنين في بطن أمه، وهو قياس فاسد؛ لأنَّ حكمة الله اقتضت أن يهيِّئ للجنين رزقه بغير كسبه ولا اختياره، حيث لا قُدرة له، وبعد ولادته هيَّأ الله له اللبن في ثدي أمه، فلا يدخل إلى جوفه إلا بحركة منه، وهو: أن يلتقم الثدي ويمتصَّ منه بفمه، وبعد أن تظهر له سنٌّ تقطع يُطلب منه أن يأكل. فأين هذا مما يقول الشاعر المخلِّط؟!

متى تُذَم الأسباب؟

إنَّما تُذَم الأسباب إذا تعلَّق القلب بها وحدها، وجعل كلَّ اعتماده عليها، ونسي مسبِّبها وخالقها، وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها، فربَّما أهمل سببًا بعيدًا أو خفيًّا، أو أغفل شرطًا لازمًا، أو كان هناك مانع قوي يعوق سببه ويبطل تأثيره، فإنه إذا بذر الحبَّة في الأرض الخِصبة، وتعهَّدها بالري والتسميد ونحو ذلك، لا يملك تعهد البذرة في أعماق التربة، ولا يملك تصريف الرياح ودرجات الحرارة والبرودة التي تؤثر فيها، ولا الآفات السماوية التي يمكن أن تحيق بها، فلا يملك المؤمن هنا إلا أن يقول بعد سببه واجتهاده: نبذر الحَب، ونرجو الثمر من الربِّ.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر القرآن لنا نموذجًا من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها، فإذا هي لا تحقق نتائجها، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

لقد خُذِلوا وهم كثرة، حيث غرَّهم الكم، وأذهلهم عن التَّوكُّل، فلم يغنِ الكم الكثير شيئًا. على حين انتصروا وهم قِلَّة، إذ كان اعتمادهم على الله وحده، بعد أن بذلوا ما استطاعوا.

ما تعجز عنه الأسباب تُكمله للمتوكِّل القدرةُ الإلهيَّة:

وثمرة التَّوكُّل هنا: أنَّ المتوكِّل على الله حين يُقدِّم من الأسباب التي أُمِرَ بها ما يقدِر عليه، ويدخل في وسعه، تُكمل له القدرة الإلهية العليا ما يعجز عنه، ولا يدخل في وُسْعه.

انظر إلى موسى عليه السلام، وقد أوحى الله إليه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣]، فخرج بقومه في جنح الليل، فارِّين من فرعون وملئه، متَّجهين ناحية البحر، والظاهر أنَّه خليج السويس. وشعر فرعون وجنوده بخروجهم، فأتبعوهم مشرقين، يريدون أن يفتكوا بهم، فهم يملكون العَدد والعُدد، مع الغيظ والغضب: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤ ـ ٥٦]، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

لقد نظر أصحاب موسى إلى الأسباب وحدها، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، سيدركنا فرعون وجنوده، ويُنكِّلون بنا، ولا طاقة لنا بهم، ولا نجاة لنا منهم، فالبحر أمامنا، وهم من خلفنا!

QaradawiBooks.com

ولكن كليم الله موسى لم يقف عند ظواهر الأسباب، بل رنا ببصيرته إلى ما هو أعلى منها، إلى خالق الأسباب، وواضع السُّنن، ومدبِّر الأمرِ كلِّه.

لقد فعل موسى ما أُمِرَ به وما قدر عليه، وبقي ما لا يقدر عليه، ولا حيلة له فيه، ولكنَّه كان موقنًا أنَّ الله معه، ولن يتخلى عنه، وسيهديه إلى حلٍّ ينقذه ومَنْ معه، لا يعرف ما هو، إلا أنه مستيقِن من وقوعه.

وكيف لا، وقد قال الله له منذ أرسله وأخاه هارون إلى فرعون: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]؟ فلا عجب أن قال موسى بكل اطمئنان: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وقد هداه الله إلى المخرج من المأزق بأمر لم يكن في حسبانه، ولا في حسبان أحد: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۞ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٧].

هذه هي ثمرة التَّوكُّل إذا انقطعت الأسباب.

وانظر إلى محمد ﷺ يوم الهجرة، كيف أخذ بكلِّ الأسباب الممكنة للبشر، خطَّط فأحكم التخطيط، ورتَّب فأحسن الترتيب، وأعدَّ لكل أمر عُدَّته المناسبة، هيَّأ مَنْ يبيت في فراشه: «عليّ بن أبي طالب»، ومَنْ يرافقه في رحلته: «أبا بكر الصديق»، ومَنْ يدلُّه على الطريق: «عبد الله بن أريقط»، واختار الغار الذي يختفي فيه أيامًا حتَّى يهدأ الطلب عنه: «غار ثور»، ولم يختره ناحية يثرب تعميةً على القوم، وهيَّأ مَن يأتي له بالزاد والأخبار: «أسماء بنت أبي بكر»، ومَن يُعفِّي على آثارها بغنمه بعد رجوعها: «عامر بن فهيرة».

QaradawiBooks.com

ومع هذا كلِّه استطاع القومُ أن يَصِلُوا إلى الغار، وأن يتوقَّفوا عنده، وهو ما جعل أبا بكر رضي الله عنه يقول مشفقًا على مصير الدعوة إن مسَّ رسول الله ﷺ سوء: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! فيرد عليه النبي ﷺ قائلًا: «**يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما**»؟ أو كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][1].

لقد فعل الرسول الكريم ما قدر عليه، وبقي ما لم يقدر عليه، فتركه لربه وراعيه، يدبِّره بما يشاء من الأسباب الخفيَّة، أو بغير الأسباب أصلًا إن شاء: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد كان الزمن الذي بين الكليم موسى والحبيب محمد عليهما الصلاة والسلام زمنًا طويلًا امتدَّ قرونًا، ولكنَّ الموقفيْن متشابهان، وتكاد العبارتان تتَّفقان: عبارة موسى: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وعبارة محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. ولا غرو، فهما يصدران من مشكاة واحدة.

بَيْدَ أنَّ الله تعالى أنجى موسى بآية حِسِّيَّة منظورة هي «العصا»، وأيَّدَ محمدًا بجنود غير مرئيَّة، نظرًا لأنَّ الآيات التي أيَّد الله بها موسى كانت ماديَّة حسية، ملائمة لتلك المرحلة في أطوار البشرية، والآية الكبرى التي أيَّد بها محمدًا صاحب الرسالة الخاتمة كانت آية معنويَّة أدبيَّة، هي القرآن الكريم.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

وفي غزوة بدر خـــرج النبي ﷺ لملاقاة المشـــركين، وإن كانوا أكثر عددًا، وأكثر عُدة، وأعظم غرورًا، ولكن ذلك لم يُضعف من عزمه، وفعل ما أمكنه فعلُه من إحكام وتدبير، بعد الاستشـــارة والاســـتنارة، ثم ترك ما بعد ذلك لصاحب الأمر، فأيَّدهم بألفٍ من الملائكة مردفين، وغشَّاهم النَّعاسَ أمنةً منه، ونزَّل عليهم من السماء ماءً ليطهِّرهم به، وليربط على قلوبهم، ويثبِّت به الأقدام. ونصرهـــم الله ببدر وهم أذلة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وفي غزوة الأحزاب، تجمَّعَ المشـــركون لغزو المسلمين في عُقر دارهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

لقد حفر الرسول الخندق حول المدينة لتعويق المُغِيرين، وبات هو وأصحابه لياليَ عدَّة في كرب شـــديد، ونقض يهود بنـــي قريظة العهد، ووقفوا في صف المهاجمين. وهنا لم يكن أمام الرســـول والمؤمنين إلا التَّوكُّل على ربِّهم والاستغاثة به: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم**»[(١)].

وهنا تجيء ثمرة التَّـــوكُّل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحـــزاب: ٩]، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومســـلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن عبد الله بن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

الناس والأسباب في عصرنا

والخلاصة: أنَّ الناس مع الأسباب أصناف أربعة:

معطلو الأسباب:

الصنف الأول: الذين عطَّلوا الأسباب وأعرضوا عنها بأبدانهم وقلوبهم بدعوى التَّوكُّل على الله تعالى. وهؤلاء منهم الصادقون المخلصون، ومنهم المتظاهرون المدَّعون.

وقد بيَّنا الموقف الشرعي من هؤلاء في ضوء ما وضع الله من سنن، وما شرع من أحكام، معتمدين على المحكَمات لا المتشابهات، من نصوص القرآن والسُّنَّة، مستهدين بعمل الصحابة ومَن تبعهم بإحسان، مستأنسين بأقوال كبار الأئمة، وهُداة الأمة، القائمين لله بالحُجَّة.

وأحبُّ أن أقول: إنَّ هذا الصِّنْف لم يعد يكوِّن مشكلةً اليوم، فوجوده نادر أو معدوم، إلا ما كان من باب الادِّعاء أو التشبه بالصُّوفِيَّة الأقدمين، في حين ليس له علم يؤخذ عنه، ولا عمل يُقتدى به فيه. وهو الذي شبَّهه بعضهم بالبومة الساكنة في الخراب! كما نقل ذلك العلامة المناوي رحمه الله تعالى.

المعتمدون على الأسباب دون مُسبِّبها:

والصنف الثاني: الذين تشبَّثوا بالأسباب، بجوارحهم وقلوبهم، وغفلوا عن مسبِّبها وخالقها، فكلُّ نظرهم إليها، وكُلُّ اعتمادهم عليها، حتَّى أمست وكأنَّها آلهة تُعبد مع الله، أو من دون الله!

QaradawiBooks.com

وهؤلاء ـ للأسف الشديد ـ هم أكثر الخلق، فلا يكاد أحدهم يرى الرزق إلا في الوظيفة التي يقبض راتبه منها كلَّ شهر، أو في البيت الذي يدرُّ عليه الدخل كل مدة، أو في التجارة التي تعود عليه بالربح كل عام، أو في الشركة التي ساهم فيها، أو في أبيه الذي تكفَّل بالنفقة عليه، أو بفلان الأمير أو الوزير أو الوجيه الذي يسنده في منصبه، أو يسهِّل له صفقاته.

ولهذا نرى أحدهم يقول: لولا معاونة فلان لهلكنا، ولولا ما ورثناه من أبينا لضعنا. وقلَّما يذكر أحد ربَّه الذي هيَّأ له هذا أو ذاك، ورزقه به من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب.

فكأنَّ هؤلاء باتوا ـ في أمر الرزق والتدبير ـ في مرتبة دون مرتبة المشركين الذين حدَّثنا القرآن عنهم أنَّهم كانوا يردُّون أمر الرزق والتدبير، والإحياء والإماتة إلى الله سبحانه، لا إلى أصنامهم، ولا إلى أحد من خلقه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

المستعينون بالأسباب على المعاصي:

والصنف الثالث: أسوأ من الصنف الثاني، فإنَّ الصنف الثاني اعتمدوا على الأسباب في المباحات، وهؤلاء استخدموها في المحرَّمات. استعانوا بالأسباب المُسخَّرة من الله على معاصي الله.

استعملوا ذكاءهم وتدبيرهم في عصيان الخالق وإيذاء الخلق.

QaradawiBooks.com

واستخدموا قوَّتهم وجاههم في البطش بالمستضعفين، والعدوان على حقوق المغلوبين. وسخَّروا أموالهم ومكاسبهم في اتِّباع الشهوات، وإشاعة الفاحشة، وترويج الفساد في الأرض.

وجعلوا من مناصبهم وولاياتهم أداةً لظلم الضعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإثراء من الحرام، وإعلاء الباطل على الحق، والمنكر على المعروف.

حتى العلم، وجَّهوه لخدمة المادة على حساب الرُّوح، ولتيسير المتعة على حساب القيم. بل علم الدِّين نَفْسِه، أحالوه آلةً لاقتناص الدنيا، وتفريخ الفتاوى لأمراء السوء، وحُكَّام الجور، فأحلُّوا ما حرَّم الله، وحرَّموا ما أحلَّ الله، وأسقطوا ما أوْجب الله.

وكذلك الأدب والبيان، وجَّهوه لترويج الفساد، وإشاعة الفاحشة، وتبرير ظلم الحُكَّام وحكم الظُّلَّام.

وقد صوَّر شاعر النيل حافظ إبراهيم أنواعًا من هذا الصنف، فأبدع في تصويره حين قال:

كم عالِمٍ مَدَّ العلومَ حبائلًا ... لوقيعة وقطيعة وفراقِ
وَطبيبِ قومٍ قد أحلَّ لطبِّهِ ... ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلَّاقِ
قَتَلَ الأجِنَّة في البطونِ، وتارةً ... جمعَ الدراهمَ من دَمٍ مُهْراقِ
أغْلَى وأثمَنُ من تجارب عِلْمِهِ ... يومَ الفخارِ تجارِبُ الحلَّاقِ
وَفقيهِ قومٍ ظلَّ يرصدُ فِقهَهُ ... لمكيدةٍ أو مُستحلِّ طَلاقِ
يَمْشي وقد نُصِبَتْ عليه عِمَامةٌ ... كالبُرْجِ، لكن فوقَ تَلِّ نِفَاقِ
يَدْعُونَه عند الشِّقاقِ وما دَرَوا ... أنَّ الذي يدعونَ خِدْنُ شِقاقِ
وَأديبِ قَوْمٍ تَستحِقُّ يَمينُه ... قَطْعَ الأناملِ أو لَظَى الإحْراقِ

QaradawiBooks.com

فِي كَفِّــهِ قلــمٌ يَمُــجُّ لُعابُه ... ســمًّا، وينفُثُه عَلَى الأَوْرَاقِ
يَرِدُ الْحَقَائق وَهِي بِيضٌ نُصَّعٌ ... قُدْســيّةٌ عُلْويّــةُ الإِشْــرَاقِ
فَيَرُدُّهَا سُــودًا عَلَــى جَنَباتِها ... مِن ظُلْمَةِ التَّمْويهِ أَلْفُ نِطَاقِ[1]

لقد جعل الله الأسباب لخلقه نعمة، فجعلها هؤلاء نقمة، حين انحرفوا بها إلى ما يُسخط الله تبارك وتعالى.

ومثل هؤلاء: مَن شغلتهم الأســباب عن أداء فرائض الله ﷻ، فأولئك استعانوا بالأســباب على فعل المحظور، وهؤلاء أَلْهَتهم عن فعل المأمور. كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

وقد ذكر النبي ﷺ الصلاة، فقال: «**من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامــة، ومَن لم يحافظ عليها لــم يكن له نور ولا برهان ولا نجــاة، وكان يوم القيامة مع فرعــون وهامان وقارون وأُبَيِّ بن خلف**»[2].

قال العلماء: مَنْ شــغله عن الصلاة مُلْكه حُشِر مع فرعون، ومن شغله عنها منصبه حُشــر مع هامان، ومَن شــغله عنها ثروته وكنوزه حُشِــر مع قــارون، ومَن شــغله عنهــا تجارته وكســبه حُشِــر مع أُبَيّ بن خلف.

---

(١) ديــوان حافظ إبراهيــم (٢٦٨/١، ٢٦٩)، تحقيق أحمــد أمين بك، وأحمد الزيــن، وإبراهيم الإبياري، نشر المطبعة الأميرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٤٨م.

(٢) رواه أحمد (٦٥٧٦)، وقال مخرِّجوه: إســناده حســن. وابن حِبَّان في الصلاة (١٤٦٧)، وقال المنذري في التَّرغيب والتَّرهيب (٨٣٢): إسناده جيد. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

من جمعوا بين السبب والتَّوكُّل على المسبب:

والصنف الرابع: هو الذي أخذ بالأسباب، ولم يغفل عن مسبِّبها، فهو مع الأسباب بجوارحه وبدنِه، ومع ربِّه بعقله وقلبه. فهذا هو المتوكِّل حقًّا.

هو الذي رعَى سُنَّة الله في خلقه، وأحكامه في شرعه، مُوقنًا أنَّ الله تعالى هو الذي وضع الأسباب، وأمر باتِّخاذها، ورتَّب عليها آثارها قدرًا وشرعًا، وهو في الوقت نفسه القادرُ على أن يعطِّلها إن شاء، وأن يخلق من الموانع ما يعوق سيرها، أو يبطل أثرَها.

هذا الصنف هو الذي أحسن الفهم عن الله ورسوله، فعقل ناقته وتوكَّل، وبذر الحَبَّ، واعتمد على الربّ، ومشى في مناكب الأرض التي ذللَّها الله آكلًا من رزق الله، وباع واشترى، ولكن لم تُلهه تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وإذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة، ترك بيعه، وجمَّد سببه، ساعيًا إلى ذكر الله، فإذا قُضِيَتِ الصلاة انتشر في الأرض مبْتغيًا من فضل الله.

وهذا هو الذي سار عليه المربُّون الكبار من أهل الطريق إلى الله.

فكانوا «يُسَلِّكون» الناس، وهم في حرفهم وأعمالهم الدنيويَّة، التي يكسبون منها معاشهم، وهي خليقة أن تكون عبادة لهم إذا اتقوا الله فيها، فأخلصوا فيها النيَّة، وأدّوها بالإحسان الذي كتبه الله على كل شيء، ورعوا الحقوق، ولم يتعدّوا الحدود[1].

(١) انظر كتابنا: العبادة في الإسلام صـ ٦١ ـ ٦٣، تحت عنوان: عمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٩، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

وقد كان بعضهم يقول: ما أجمل أن يجعل الفلاح فأسه مِسبحته، ويجعل النجار منشاره مِسبحته، ويجعل الحدَّاد مطرقته مسبحته. وهكذا.

وقد حكى الفقيه الربَّاني ابن عطاء الله السكندري عن بداية صلته بشيخه أبي العباس المرسي، وأنَّه كان يريد أن يقبس من إشعاعه الروحي، وتوجيهه الربَّاني، ولكنَّه سمع من أصحابه من طلبة العلم أن الذي يصحب مشايخ الطريق يضمُر حظه في العلم الشرعي الظاهر، قال: فشقَّ عليَّ أن يفوتني العلم، وشقَّ عليَّ أن تفوتني صُحبة الشيخ رحمه الله تعالى.

فلما ذهب إلى الشيخ كان أول ما بادره به أن قال: نحن إذا صحبنا تاجرًا، ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة، ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم، ما نقول له: اترك طلبك وتعال. ولكن نقرُّ كلَّ أحد فيما أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

قال: وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذي صنعة: اترك صنعتك، بل أقرَّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها[1].

* * *

(١) انظر: لطائف المنن لابن عطاء الله صـ ١٠٢، تحقيق د. عبد الحليم محمود، نشر دار المعارف، ط ٣، ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

الفصل الخامس

التَّداوي والتَّوكُّل

الطِّبُّ والتَّدَاوي بين الصُّوفِيَّة والفقهاء:

ومن معتركات النزاع في باب التَّوكُّل بين الصُّوفِيَّة والفقهاء: قضية الطب والتَّداوي.

فالغالب على الصُّوفيَّة الإعراض عن التَّداوي، وعن الرجوع إلى الأطباء، اتِّكالًا على الله تعالى، ورضًا بما قضاه وقدَّره.

وربَّما استدلوا في ذلك بحديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ووصفهم بأنَّهم: «**الذين لا يسترقون ولا يكتوون**»[(١)].

والاسترقاء ـ طلب الرقية من الغير ـ: نوع من التَّداوي بالروحانيات، والاكتواء: من التَّداوي بالماديات.

وقد ورد في حديث: «**مَن اكتوى أو استرقى فقد برئ من التَّوكُّل**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٠.

(٢) رواه أحمد (١٨١٨٠) وقال مخرِّجوه: حديث حسن. والتِّرْمذي (٢٠٥٥) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٨٩)، كلاهما في الطب عن المغيرة بن شعبة.

QaradawiBooks.com

وقال أحد الصحابة ـ وهو عمران بن حصين ـ: إنَّ رسول الله ﷺ نهى عن الكيّ، فاكتوينا، فما أفلحْنَ ولا أنجحْنَ (يعني: الكيات)، وفي رواية التِّرْمذي: فما أفلحنا ولا أنجحنا[١].

وفي «الصحيحين» من حديث جابر: «**وإن كان في شيء من أدويتكم خير، ففي شرطة مِحْجَم، أو شربة من عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أُحِبُّ أن أكتوي**»[٢].

وفي لفظ: «**وأنا أنهى أُمَّتي عن الكيِّ**»[٣].

أمَّا الفقهاء فهم يعارضون غلاة الصُّوفِيَّة في أمر التَّداوي وسؤال الأطباء، بناءً على قاعدة الأسباب الثابتة بحكم سنن الله الكونيَّة، وأحكامه الشرعيَّة جميعًا، واتِّباعًا لما صحَّت به سُنَّة النبي ﷺ، ونطقت به سيرته، وأفصحت عنه الأدلة المحكمة الناصعة؛ ولهذا خصَّصت مصنفات الحديث المؤلَّفة على الموضوعات كتابًا خاصًّا للطب. كما في «الصحيحين» و«السنن» وغيرها.

دلَّت الأحاديث المستفيضة على العناية بصحَّة الأجسام وقوتها، وقرَّرت أنَّ للبدن حقًّا في الراحة إذا تعب، وفي الشبع إذا جاع، وفي الدفء إذا برد، وفي النظافة إذا اتَّسخ، وفي العلاج إذا مرض. ووردت أحاديث شتى في الطب الوقائي، وفي الطب العلاجي.

---

(١) رواه أحمد (١٩٨٦٤) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٣٨٦٥)، والتِّرْمذي (٢٠٤٩)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٧٥٥٨)، وابن ماجه (٣٤٩٠)، أربعتهم في الطب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٦٨٣)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥).

(٣) رواه البخاري في الطب (٥٦٨١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فمن الطب الوقائي: الأحاديث التي أقرَّت سُنَّة الله في العدوى، مثل قوله: «**فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**»[١]، ولا يعارض هذا حديث: «**لا عدوى**»؛ لأنَّ المقصود أنَّ الأشياء لا تعدي بذاتها، بل بمشيئة الله وتقديره. وهو الذي وضع النواميس والأسباب.

«**إذا وقع** ـ أي الطاعون ـ **بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تدخلوها**»[٢]. دلالةً على وجوب الْحَجْر الصحِّي، لمحاصرة الوباء في أضيق رقعة.

«**لا يوردنَّ مُمْرض على مُصِحّ**»[٣].

والمصحُّ: صاحب الإبل الصِّحاح السليمة، والمُمْرض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب، فلا يورد إبله الجُرْب عند الشرب، فتحتكُّ بالسليمة فتعديها، فأقرَّ سُنَّة العدوى في الحيوان، كما أقرَّها في الإنسان.

إلى غير ذلك من الأحاديث.

ومن الطبِّ العلاجي: ما وصفه النبي ﷺ لعلاج أمراض كثيرة معينة، وأُلِّفت فيه كتب «الطب النبوي»، وأفاض فيه ابن القيِّم في «زاد المعاد» حتَّى استغرق جزءًا كاملًا في إحدى طبعاته.

---

(١) رواه أحمد (٩٧٢٢) وقال مخرِّجوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف. والبخاري تعليقًا (٥٧٠٧) مجزومًا به، والبيهقي في النكاح (١٣٥/٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٣)، ومسلم في السلام (٢٢١٨)، عن أسامة بن زيد.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧٠، ٥٧٧١)، ومسلم في السلام (٢٢٢١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هذا إلى أحاديث كثيرة قرَّرت مبادئ مهمَّة في أمر الطب والتَّداوي، نذكر منها:

غير مرخصة للطباعة

روى مسلم في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: «**لكلِّ داء دواء، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله** ﷻ»[(١)].

وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزل له شفاء**»[(٢)].

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث زياد بن عِلَاقة، عن أُسامة بن شريك، قال: كنتُ عند النبي ﷺ، وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «**نعم، يا عباد الله، تداوَوْا، فإنَّ الله** ﷻ **لم يضع داءً إلا وضع له شفاء غير داء واحد**»، قالوا: ما هو؟ قال: «**الهَرَم**»[(٣)].

وفي لفظ: «**إنَّ الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء، علمه مَن علمه وجهله مَن جهله**»[(٤)].

وفي المسند من حديث ابن مسعود يرفعه: «**إن الله** ﷻ **لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء، علِمه مَن علمه، وجهله مَن جهله**»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٤)، وأحمد (١٤٥٩٧).

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨).

(٣) رواه أحمد (١٨٤٥٤) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٣٨٥٥)، والتِّرْمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، ثلاثتهم في الطب.

(٤) رواه أحمد (١٨٤٥٦) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف. عن أسامة.

(٥) رواه أحمد (٣٩٢٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥١).

QaradawiBooks.com

وفي «المسند» و«السنن»، عن أبي خِزَامة قال: قلت: يا رسول الله؛ أرأيتَ رُقًى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتُقاة نتَّقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟ فقال: «**هي من قدر الله**»[1].

ذكر الإمام ابن القيِّم هذا الأحاديث في «الْهَدْي النبوي» ثم قال:

«فقد تضمَّنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسبَّبات، وإبطال قول مَن أنكرها، ويجوز أن يكون قوله: «**لكلِّ داءٍ دواءٌ**» على عمومه حتَّى يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن لطبيب أن يُبرئها، ويكون الله ﷻ قد جعل لها أدويةً تُبرئها، ولكن طوى علمَها عن البشر، ولم يجعل لهم إليه سبيلًا؛ لأنَّه لا علم للخلق إلا ما علَّمهم الله، ولهذا علَّق النبي ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء، فإنَّه لا شيء من المخلوقات إلا له ضده، وكُلُّ داءٍ له ضدٌّ من الدواء يُعالَج بضدِّه، فعلَّق النبي ﷺ البُرْء بموافقة الداء للدواء، وهذا قدر زائد على مجرد وجوده، فإن الدواء متى جاوز درجة الداء في الكيفية، أو زاد في الكمية على ما ينبغي، نقله إلى داء آخر، ومتى قصر عنها لم يفِ بمقاومته، وكان العلاج قاصرًا، ومتى لم يقع المُداوي على الدواء، أو لم يقع الدواء على الداء، لم يحصل الشفاء، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء، لم ينفع، ومتى كان البدن غير قابل له، أو القوَّة عاجزة عن حمله، أو ثَمَّ مانع يمنع من تأثيره، لم يحصل البُرء لعدم المصادفة، ومتى تمَّت المصادفة حصل البُرْء بإذن الله ولا بدَّ، وهذا أحسن المَحْمَلين في الحديث.

والثاني: أن يكون من العامِّ المرادِ به الخاصُّ، لا سيما والداخل في اللفظ أضعاف أضعاف الخارج منه.

---

(١) سبق تخريجه صـ٧٥.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومَن تأمَّل خلــق الأضداد في هذا العالــم، ومقاومة بعضها لبعض، ودفع بعضها ببعض، وتســليط بعضها على بعــض، تبيَّن له كمال قدرة الربِّ تعالى وحكمتــه، وإتقانه ما صنعه، وتفــرُّده بالربوبيَّة والوحدانيَّة والقهر، وأن كل ما سواه فله ما يضادُّه ويمانعه، كما أنه الغنيُّ بذاته، وكلُّ ما سواه محتاجٌ بذاته.

وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتَّداوي، وأنَّه لا ينافي التَّوكُّل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطــش، والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمســبَّباتها قــدرًا وشــرعًا، وأنَّ تعطيلها يقدح في التَّوكُّل نفسه، كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه، مــن حيث يظن معطِّلها أنَّ تركها أقوى في التَّوكُّل، فإن تركها عجزًا ينافي التَّوكُّل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله فــي حصول ما ينفــع العبد في دينــه ودنياه، ودفع ما يضــره في دينــه ودنيــاه، ولا بد مع هــذا الاعتماد من مباشــرة الأسباب، وإلا كان معطِّلًا للحكمة والشــرع، فلا يجعل العبدُ عجزه توكُّلًا، ولا توكُّلَه عجزًا.

وفيها ردٌّ على مَن أنكــر التَّداوي، وقال: إنْ كان الشــفاء قد قُدِّر، فالتَّداوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قُــدِّر، فكذلك، وأيضًا، فإنَّ المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لا يُدفع ولا يُرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ، وأمَّا أفاضل الصحابة، فأعلمُ بالله وحكمته وصفاته من أن يُوردوا مثل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرُّقى والتُّقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يُرَدُّ قدرُه بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج

QaradawiBooks.com

عن قدره بوجه ما، وهذا كردٌّ قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، وكردٌّ قدر العدوِّ بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله: الدافع، والمدفوع، والدفْع.

ويقال لمُورد هذا السؤال: هذا يوجب عليك ألَّا تباشر سببًا من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرَّة؛ لأنَّ المنفعة والمضرَّة إن قُدِّرتا، لم يكن بُدٌّ من وقوعهما، وإن لم يُقدَّرا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفي ذلك خراب الدِّين والدنيا، وفساد العالَم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق، معاندٌ له، فيذكر القدر ليدفع حُجَّة المحقِّ عليه، كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فهذا قالوه دفعًا لحُجَّة الله عليهم بالرسل.

وجواب هذا السائل أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره، وهو أنَّ الله قدَّر كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيتَ بالسبب حصل المسبَّب، وإلا فلا.

فإن قال: إن كان قدَّر لي السبب، فعلتُه، وإن لم يُقدِّره لي لم أتمكَّن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك وولدك وأجيرك إذا احتجَّ به عليك فيما أمرتَه به ونهيتَه عنه فخالفك؟ فإن قبلتَه، فلا تلُم مَن عصاك، وأخذ مالك، وقذفَ عِرْضَك، وضيَّع حقوقك. وإن لم تقبله، فكيف يكون مقبولًا منك في دفع حقوق الله عليك؟ وقد رُوي في أثر إسرائيلي: أنَّ إبراهيم الخليل قال: يا ربِّ؛ ممَّن الداء؟ قال: منّي. قال: فممَّن الدواء؟ قال: منّي. قال: فما بال الطبيب؟ قال: رجل أُرسلُ الدواء على يديه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي قوله ﷺ: «**لكلِّ داء دواء**»، تقويةٌ لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرتْ نفسُه أنَّ لدائه دواءً يزيله، تعلَّق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرَّجاء، ومتى قَويت نفسُه انبعثت حرارته الغريزيَّة، وكان ذلك سببًا لقوَّة الأرواح الحيوانيَّة والنفسانيَّة والطبيعيَّة، ومتى قويت هذه الأرواح، قَوِيت القُوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أنَّ لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. وأمراض الأبدان على وِزَان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاءً بضدِّه، فإنْ علمه صاحبُ الداء واستعمله، وصادف داءَ قلبِه، أبرأه بإذن الله تعالى»[(١)].

مشروعية الكيّ في السُّنَّة الصحيحة:

ومن أنواع الدواء التي أجازتها السُّنَّة النبوية قولًا وفعلًا: الكيّ بالنار، الذي كان معروفًا عند العرب، وقالوا فيه: آخر الدواء الكيّ. وقد ثبتت فيه جملة أحاديث صحاح، ذكر ابن القيِّم رحمه الله أكثرها في «هَدْيه ﷺ في قطع العروق والكيّ» قال:

ثبت في «الصحيح» من حديث جابر بن عبد الله، أنَّ النبي ﷺ بعث إلى أُبَيّ بن كعب طبيبًا، فقطع له عِرقًا، وكواه عليه[(٢)].

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤/١٣ ـ ١٦)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٧)، وأحمد (١٤٣٧٩).

QaradawiBooks.com

ولما رُمي سعد بن معاذ في أكحَله حسمه النبي ﷺ، ثم ورِمت، فحسمه الثانية[١]. والحسم: هو الكيّ.

وفي طريق آخر: أنَّ النبي ﷺ كوى سعد بن معاذ في أكحله بمِشْقص، ثم حسمه. سعد بن معاذ، أو غيره من أصحابه[٢].

وفي لفظ آخر: أنَّ رجلًا من الأنصار رُمِي في أكحله بمِشْقص، فأمر النبي ﷺ به فكُوي.

وقال أبو عبيد: وقد أُتِيَ النبي ﷺ برجل نُعِتَ له الكيُّ، فقال: «**اكوُوه وارضِفوه**»[٣]. قال أبو عبيد: الرَّضْف: الحجارة تسخن، ثم يكمد بها[٤].

وقال الفَضْل بن دُكَيْن: حدَّثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، أنَّ النبي ﷺ كواه في أَكْحَله[٥].

وفي «صحيح البخاري» من حديث أنس، أنَّه كُوي من ذات الجَنْب والنبي ﷺ حي[٦].

وفي التِّرْمذي، عن أنس، أنَّ النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[٧].

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٨)، وأحمد (١٤٣٤٣).

(٢) ذكره أبو عُبيد في غريب الحديث (٢٥٧/٢)، تحقيق د. محمد عبد المعيد خان، نشر مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(٣) رواه أحمد (٣٧٠١) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في الطب (٢١٤/٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

(٤) غريب الحديث لأبي عبيد (١٨٠/٣).

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦١٠/٣).

(٦) رواه البخاري في الطب (٥٧١٩).

(٧) رواه التِّرْمذي (٢٠٥٠) وقال: حسن غريب. وابن حِبَّان في الطب (٦٠٨٠) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والحاكم في معرفة الصحابة (١٨٧/٣)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

وقد تقدَّم الحديث المتَّفق عليه وفيه: «**وما أحب أن أكتوي**»[١]، وفي لفظ آخر: «**وأنا أنهى أُمتي عن الكيّ**»[٢].

وذكر هنا أيضًا حديث عمران بن حصين، أنَّ النبي ﷺ نهى عن الكيّ قال: فابتلينا، فاكتوينا فما أفلحنا، ولا أنجحنا، وفي لفظ: نهينا عن الكيّ، وقال: فما أفلحن ولا أنجحن[٣].

قال ابن القيِّم: قال الخطابي: إنَّما كوى سعدًا ليرقأ الدم من جرحه، وخاف عليه أن ينزف فيهلك، والكيّ مستعمل في هذا الباب[٤]. كما يُكوى مَن تُقطع يده أو رِجله.

وأمَّا النَّهي عن الكيّ، فهو أن يكتوي طلبًا للشفاء، وكانوا يعتقدون أنَّه متى لم يكتو، هلك، فنهاهم عنه لأجل هذه النية.

وقيل: إنَّما نهى عنه عمران بن حُصين خاصَّة؛ لأنَّه كان به ناصور، وكان موضعه خطرًا، فنهاه عن كيِّه، فيشبه أن يكون النهي منصرفًا إلى الموضع المَخُوف منه، والله أعلم.

وقال ابن قتيبة: الكيُّ جنسان: كيُّ الصحيح لئلا يعتل، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكَّلْ مَن اكتوى؛ لأنَّه يريد أن يدفع القَدَر عن نفسه.

والثاني[٥]: كيّ الجرح إذا نغِل[٦]، والعضو إذا قُطِع، ففي هذا الشفاء[٧].

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٨.

(٢) سبق تخريجه صـ٨٨.

(٣) سبق تخريجه صـ٨٨.

(٤) معالم السنن للخطابي (٢١٨/٤)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

(٥) المصدر السابق صـ ٤٦٤.

(٦) أي: إذا فسد.

(٧) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة صـ ٤٦٢، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

وأمَّا إذا كان الكيّ للتداوي الذي يجوز أن ينجح، ويجوز ألا ينجح، فإنَّه إلى الكراهة أقرب... انتهى.

وثبت في «الصحيح» في حديث: «**السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب أنَّهم لا يَسْتَرْقُون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون**»[١].

فقد تضمَّنت أحاديث الكيِّ أربعة أنواع: أحدها: فعله. والثاني: عدم محبته له. والثالث: الثناء على من تركه. والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإن فعله يدلُّ على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه، بل يفعل خوفًا من حدوث الداء، والله أعلم[٢].

وقال الحافظ في «الفتح»: النهي فيه محمول على الكراهة، أو على خلاف الأوْلى لما يقتضيه مجموع الأحاديث... قال: وحاصل الجمع: أنَّ الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع، بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تاركه، وأمَّا النَّهي عنه، فإمَّا على سبيل الاختيار والتنزيه، وإمَّا عما لا يتعين طريقًا إلى الشفاء، والله أعلم[٣].

وأمَّا حديث السبعين ألفًا، الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب، والذين وُصِفوا بأنَّهم «**لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون، وعلى**

(١) سبق تخريجه صـ٢٠.

(٢) زاد المعاد (٥٨/٤ ـ ٦٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١٥٥/١٠، ١٥٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ربهم يتوكَّلون»[1] فقد قال الحافظ ابن حجر في توجيهه في «الفتح»: تمسك بهذا الحديث مَن كره الرُّقَى والكيّ من بين سائر الأدوية، وزعم أنَّهما قادحان في التَّوكُّل دون غيرهما.

قال: وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة: أحدها قاله الطبري والمازري وطائفة؛ أنَّه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعيين في أنَّ الأدوية تنفع بطبعها، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون.

وقال غيره: الرُّقى التي يُحمد تركها: ما كان من كلام الجاهلية، ومن الذي لا يعقل معناه، لاحتمال أن يكون كفرًا، بخلاف الرُّقَى بالذِّكْر ونحوه.

وتعقبه عياض وغيره بأنَّ الحديث يدلُّ على أنَّ للسبعين ألفًا مزيَّة على غيرهم، وفضيلة انفردوا بها عمَّن شاركهم في أصل الفضل والديانة، ومَن كان يعتقد أن الأدوية تؤثِّر بطبعها، أو يستعمل رقَى الجاهلية ونحوها، فليس مسلمًا... فلم يسلم هذا الجواب.

ثانيها: قال الداودي وطائفة: إنَّ المراد بالحديث: الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء، وأمَّا مَن يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا، وقد قدمتُ هذا عن ابن قتيبة وغيره في «باب مَن اكتوى»، وهذا اختيار ابن عبد البر، غير أنَّه معترَض بما قدَّمته من ثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء.

ثالثها: قال الحَلِيمي: يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث: مَن غفل عن أحوال الدنيا، وما فيها من الأسباب المُعَدَّة لدفع

(١) سبق تخريجه صـ٢٠.

QaradawiBooks.com

العوارض، فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله، والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء ورقَى الرقاة، ولا يحسنون من ذلك شيئًا، والله أعلم.

رابعها: أنَّ المراد بترك الرُّقَى والكيّ: الاعتماد على الله في دفع الداء، والرضا بقدره، لا القدح في جواز ذلك، لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة، وعن السلف الصالح، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب، وإلى هذا نحا الخطابي ومَن تبعه.

قال ابن الأثير: هذا من صفة الأولياء المُعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها، وهؤلاء هم خواص الأولياء[1]... ولا يَرِدُ على هذا وقوع ذلك من النبي ﷺ فعلًا وأمرًا؛ لأنَّه كان في أعلى مقامات العرفان، ودرجات التَّوكُّل، فكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكُّله؛ لأنَّه كان كامل التَّوكُّل يقينًا، فلا يؤثِّر فيه تعاطي الأسباب شيئًا، بخلاف غيره ولو كان كثير التَّوكُّل، لكن مَن ترك الأسباب وفوَّض وأخلص في ذلك كان أرفع مقامًا[2].

والذي أودُّ التنبيه عليه ـ بعد سرد هذه الأقوال ـ أمران:

الأول: أنَّ الذين استدلوا بترك الاكتواء والاسترقاء خاصَّة في الحديث على ترك التَّداوي جملة، وترك تعاطي الأسباب عامَّة، واعتبار مَن فعل ذلك أفضل وأعلى مقامًا ممَّن تداوى وتعاطى الأسباب، وهو متوكِّلٌ على الله؛ قد أسرفوا في الاستدلال، فإن الدليل أخص من الدعوى، فإن المذكورين في الحديث لم يُوصفوا بترك التَّداوي عامة، بل بترك نوع

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مادة (ر. ق. ي).

(٢) فتح الباري (٢١١/١٠، ٢١٢).

QaradawiBooks.com

منه، وهو الاكتواء، لما فيه من الألم العظيم، والخطر الجسيم، وقد ذكرنا سر كراهية الاكتواء قبل هذا.

الثاني: أنَّ هَدْي رسول الله ﷺ، وهَدْي أصحابه رضي الله عنهم، هو خير الهَدْي، وسُـنَّتهم هي المتَّبعة دون غيرها. وقد تداوى رسـول الله ﷺ، وتداوى أصحابه في حياته، ومِن بعده، وهم الذين يُقتَدَى بهم فيُهتدَى.

قال عروة بن الزبير لخالته عائشـة أمِّ المؤمنين: قد أخذتِ السنن عن رسول الله ﷺ، والشِّعر والعربية عن العرب، فممَّن أخذتِ الطب؟ قالت: إنَّ رسول الله ﷺ كان رجلًا مسْـقامًا، وكان أطباء العرب يأتونه فأتعلَّم منهم[1].

فهذا أفضل الخلق، وسـيد الرسـل محمد عليه الصلاة والسلام، يأتيه أطباء العرب، ليصفوا له من الأدوية والعلاجات ما يُذهب بسـقمه بإذن الله، وقد كان مِسْقامًا كما تقول عائشة، أي يعرض له السقم والمرض كثيرًا.

وممَّا لا ريب فيـه: أنَّ مقام رسـول الله ﷺ هو الأرفـع، وهَدْيه هو الأفضل، وحاله هو الأعلى من حال غيره، فإذا فعل ذلك دلَّ هذا على أنه لا يناقض التَّوكُّل؛ لأنَّ التَّوكُّل عمل قلبيٌّ، لا معارضة بينه وبين تعاطي الأسباب، ومنها: التَّداوي.

وللإمـام الغزالي كلام جيـد في جملته فـي «كتاب التَّـوكُّل» من «الإحياء»، تحدَّث فيه عن التَّـداوي بوصفه ضربًا من فنِّ إزالة الضرر... بيَّن فيه أنَّ الأسباب المزيلة للمرض تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه أحمد (٢٤٣٨٠) وقال مخرِّجوه: صحيح. والحاكم في الطب (١٩٧/٤) وصحح إسناده، وقال الذهبي: صحيح على شرط الشيخين.

QaradawiBooks.com

مقطوع به؛ كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع...

وإلى **مظنون**؛ كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل، وسائر أبواب الطب.

وإلى **موهوم**؛ كالكيّ والرقية.

قال: **أمَّا المقطوع به**، فليس من التَّوكُّل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت (وينبغي أن يلحق بالموت: الألم الشديد والضرر البالغ ونحو ذلك).

وأمَّا الموهوم، فشرط التَّوكُّل تركه، إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكِّلين، وأقواها: الكيّ، ويليه الرقية، والطِّيَرة آخر درجاتها. والاعتماد عليها، والاتِّكال إليها، غاية التعمق في ملاحظة الأسباب.

وأمَّا الدرجة المتوسطة وهي المظنونة ـ كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ـ ففعله ليس مناقضًا للتوكُّل، بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظورًا، بخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص. فهي على درجة بين الدرجتين.

ويدلُّ على أن التَّداوي غير مناقض للتوكُّل: فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به.

وذكر من الأحاديث بعض ما ذكرناه من قبل.

إلى أن قال: فإذن معنى التَّوكُّل مع التَّداوي: التَّوكُّل بالعلم والحال... فأما ترك التَّداوي رأسًا فليس شرطًا فيه[1].

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢٨٥ ـ ٢٨٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكلام الغزالي رحمه الله هنا جيد يليق بفقهه وإمامته، لولا أنَّه جعل ترك الكيّ والرقَى شرطًا في التَّوكُّل، وهو مخالف للأدلة الوفيرة التي سقناها من قبل، وحديث «**السبعين ألفًا**»[١]. لا يدلُّ على أنَّهم وحدهم المتوكِّلون، بل يدل على أنهم صنف متميِّز؛ فيؤخذ منه أفضليَّة سلوكهم لا شرطيته. هـذا إلى أن للحديـث تأويلات عـدة ذكرهـا العلمـاء ـ حكيناها في موضعها ـ ليجمعوا بين النصـوص بعضها وبعض. وقد ثبتت الرُّقى من قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، وجاءت عنه صيغ في الرُّقْية معروفة.

وقد ذكر ابن تيميـة[٢] أنَّ المنفيَّ هو الاسـترقاء ـ أي طلب الرقية ـ وليس الرقية، وأنَّ الرقية من عمل الخير والمعروف الذي يسديه المسلم إلى أخيه المسـلم. وقد أنكر الروايات التي جاءت بلفظ «**يرقُون**»، وإن دافع عنها ابن حجر[٣].

ويستفاد من فقه الغزالي هنا: أنَّ الأسباب المقطوع بها ـ أي الموصلة إلى نتائجها بحسـب المعتاد من سُـنَّة الله ـ يجب الأخذ بها، ولا يجوز الإعراض عنها، وأن تركها حرام شرعًا.

وعلى ضوء هذا نقول: إنَّ الطب في عصرنا توصل إلى وصف أدوية معيَّنة لأمـراض معيَّنة، جرَّبهـا الناس حتَّى أصبحت شـبه مقطوع بها. فالقول إذن بوجوب الأخذ بها متَّجه، ولا سيما إذا كان المرء يعاني من ألم بالغ، كوجع الضرس، أو صداع الرأس، أو مغص الكُلية، وفي الدواء المجرَّب ما يزيلها أو على الأقل يخفِّفها، فالأرجح وجوب تناول الدواء

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٠.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٢٨/١)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسـم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) انظر: فتح الباري (٤٠٨/١١، ٤٠٩).

QaradawiBooks.com

على المتألم لإزالة الألم، فإنَّ الله تعالى عن تعذيبه نفسه لغني، وهو يريد بعباده اليُسر، ولا يريد بهم العُسر. وقد قال ﷺ فيمن صام في شدَّة الحر والمشقة: «**ليس من البر الصيام في السفر**»(١).

ورأى رجلًا يمشي، قيل: إنَّه نذر أن يحجَّ ماشيًا، فقال: «**إنَّ الله لغنيٌّ عن مشيه، فليركب**»، وفي رواية: «**إنَّ الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسه**»(٢).

وعن عقبة بن عامر: أنَّ أخته نذرت أن تمشي إلى البيت حاجَّة، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله لا يصنع بشقاء أختك شيئًا، فلتركب**»(٣).

ترك بعض السلف للتداوي وتفسيره:

بقي ما رُوِيَ عن بعض الصحابة والسلف رضوان الله عليهم، أنَّهم تركوا التَّداوي توكُّلًا على الله تعالى. وما تفسيره؟ إذ قد يُفهم منه: منافاة ما صحَّ عن سيد المتوكِّلين رسول الله ﷺ.

كلام الغزالي في «الإحياء»:

وقد عقد الإمام الغزالي لذلك مبحثًا جعل عنوانه: «بيان أن ترك التَّداوي قد يُحمد في بعض الأحوال، ويدلُّ على قوة التَّوكُّل، وأنَّ ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ».

قال: «اعلم أنَّ الذين تداووا من السلف لا ينحصرون، ولكن قد ترك التَّداوي أيضًا جماعة من الأكابر، فربما يُظن أن ذلك نقصان؛ لأنَّه

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥)، كلاهما في الصيام، عن جابر.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠١)، ومسلم في النذر (١٦٤٢)، عن أنس.
(٣) رواه أحمد (١٧٢٩١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٣٢٩٣)، والتِّرمذي (١٥٤٤)، وقال: حسن. والنسائي (٣٨١٥)، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وأصل الحديث في البخاري (١٨٦٦) ومسلم (١٦٤٤)، بنحوه.

QaradawiBooks.com

لو كان كمالًا لَتَرَكَهُ رسول الله ﷺ، إذ لا يكون حال غيره في التَّوكُّل أكمل من حاله.

وقد رُوِيَ عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه قيل له: لو دعونا لك طبيبًا؟ فقال: الطبيب قد نظر إليَّ، وقال: إني فعَّال لما أريد[1].

وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب أمرضني!

وقيل لأبي ذر، وقد رمدت عيناه: لو داويتَهما؟ قال: إنِّي عنهما مشغول. فقيل: لو سألتَ الله تعالى أن يعافيَك؟ فقال: أسأله فيما هو أهم عليَّ منهما!

وكان الربيع بن خُثَيْم أصابه فالج، فقيل له: لو تداويتَ؟ فقال: قد همَمْتُ، ثم ذكرت عادًا وثمود وأصحابَ الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا، وكان فيهم الأطباء، فهلك المداوِي والمداوَى، ولم تُغْنِ الرُّقَى شيئًا.

وكان أحمد بن حنبل يقول: أُحبُّ لمن اعتقد التَّوكُّل، وسلك هذا الطريق، ترك التَّداوي من شرب الدواء وغيره، وإن كان به علل فلا يخبر المتطبِّب بها أيضًا إذا سأله.

وقيل لسهل: متى يصحُّ للعبد التَّوكُّل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله، فلم يلتفت إليه، شغلًا بحاله، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه[2].

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨١).
(٢) ذكر هذه الآثار أبو طالب المكي في قوت القلوب (٣٦/٢، ٣٧).

QaradawiBooks.com

الأسباب الصارفة عن التَّداوي:

فإذنْ منهم مَن ترك التَّــداوي وراءه، ومنهم مَن كرهه، ولا يتَّضح وجه الجمع بين فعل رسول الله ﷺ وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التَّداوي. فنقول:

إنَّ لترك التَّداوي أسبابًا:

«**السبب الأول**»: أن يكون المريض من المُكاشَفين، وقد كوشف بأنَّه انتهى أجله، وأنَّ الدواء لا ينفعه، ويكون ذلك معلومًا عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدْس وظنّ، وتارة بكشــف محقَّق، ويشبه أن يكون ترك الصِّدِّيــق رضي الله عنه التَّداوي من هذا الســبب، فإنــه كان من المُكاشَفين، فإنَّه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هُنَّ أختاك[1]، وإنَّما كان لها أخت واحدة، ولكن كانت امرأته حاملًا فولدت أنثى، فعُلم أنَّه كان قد كُوشــف بأنها حامل بأنثــى، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضًا بانتهاء أجله، وإلا فلا يُظَنُّ به إنكار التَّداوي وقد شاهد رسول الله ﷺ تداوى وأمر به.

«**السبب الثاني**»: أن يكون المريض مشغولًا بحاله، وبخوف عاقبته، واطِّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألمُ المرض، فلا يتفرَّغ قلبه للتداوي، شغلًا بحاله، وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال: إني عنهما مشغول! وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنَّما أشــتكي ذنوبي! فكان تألُّم قلبه خوفًا من ذنوبه أكثر من تألُّم بدنه بالمــرض، ويكون هذا كالمصــاب بموت عزيز من

(١) رواه مالك فــي الأقضية (٢٧٨٣)، تحقيــق الأعظمي، وصححه الألباني فــي إرواء الغليل (٦١/٦).

QaradawiBooks.com

أعزَّته، أو كالخائف الذي يُحمل إلى ملك من الملوك ليُقتل إذا قيل له: ألا تأكل وأنت جائع؟ فيقول: أنا مشغول عن ألم الجوع، فلا يكون ذلك إنكارًا لكون الأكل نافعًا من الجوع، ولا طعنًا فيمن أكل.

ويقرب من هذا اشتغال سهل التُّسْتَري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حيث قيل له: ما القوت؟ فقال: هو ذكر الحيِّ القيوم. فقيل: إنَّما سألناك عن القِوَام (أي ما تقوم به البنية)! فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء؟ قال: الغذاء هو الذِّكْر. قيل: سألناك عن طُعمة الجسد؟ قال: ما لك وللجسد؟ دع مَنْ تولاه أولًا يتولاه آخرًا: إذا دخل عليه عِلَّة فردّه إلى صانعه، أما رأيت الصَّنْعة إذا عيبت ردُّوها إلى صانعها حتَّى يصلحها[1]؟

«**السبب الثالث**»: أن تكون العِلَّة مزْمنة، والدواء الذي يؤْمر به بالإضافة إلى عِلَّته موهوم النفع، جار مجرى الكيِّ والرقية، فيتركه المتوكِّل، وإليه يشير قول الرَّبِيع بن خُثَيْم إذ قال: ذكرتُ عادًا وثمود وفيهم الأطباء، فهلك المُداوِي والمُداوَى[2]. أي إن الدواء غير موثوق به، وهذا قد يكون كذلك في نفسه، وقد يكون عند المريض كذلك، لقِلَّة ممارسته للطب وقِلَّة تجربته له، فلا يغلب على ظنه كونه نافعًا، ولا شك في أنَّ الطبيب المجرِّب أشد اعتقادًا في الأدوية من غيره، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد، والاعتقاد بحسب التجربة، وأكثر مَن ترك التَّداوي من العُبَّاد والزُّهَّاد، هذا مستندهم؛ لأنَّه يبقى الدواء عنده شيئًا موهومًا لا أصل له، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب، غير صحيح في البعض، ولكن غير الطبيب

(١) قوت القلوب (٣٠/٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٧٠٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قد ينظر إلى الكل نظرًا واحـدًا، فيرى التَّداوي تعمُّقًا في الأسـباب كالكيّ والرُّقَى، فيتركه.

«**السبب الرابع**»: أن يقصد العبد بترك التَّداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسـن الصبر على بلاء الله تعالى، أو ليجرِّب نفسه في القـدرة على الصبر. فقـد ورد في ثـواب المرض ما يكثـر ذكره. فقد قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أشدُّ الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبد على قدر إيمانه، فإن كان صلب الإيمان شُدِّد عليه البلاء، وإن كان في إيمانه ضعف خُفِّف عنه البلاء**»[1].

«**السـبب الخامس**»: أن يكون العبد قد سـبق له ذنوب، وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طـال تكفيرًا، فيترك التَّداوي خوفًا من أن يسرع زوال المرض.

«**السبب السادس**»: أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البَطَر والطغيان بطول مدَّة الصحة، فيترك التَّداوي خوفًـا من أن يعاجله زوال المرض، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان، أو طول الأمل والتسـويف في تدارك الفائـت وتأخير الخيرات. فـإنَّ الصحَّة عبارة عن قـوة الصفات، وبها ينبعث الهوى، وتتحرك الشهوات، وتدعو إلى المعاصي، وأقلها أن تدعو إلى التنعُّم في المباحات، وهو تضييع الأوقات، وإهمال للربح العظيم، في مخالفة النفس، وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيرًا لم يُخْلِه عن التنبُّه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من عِلَّة أو قِلَّة أو زَلَّة.

(١) رواه أحمد (١٤٨١) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والتِّرْمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

فقد قال بعض العارفين لإنسان: كيف كنتَ بعدي؟ قال: في عافية. قال: إن كنت لم تعصِ الله ﷻ فأنت في عافية، وإن كنت قد عصيته فأيُّ داء أدوأ من المعصية؟ ما عُوفيَ مَنْ عصى الله.

وقال عليّ كرَّم الله وجهه لما رأى زينة النَّبَط بالعراق في يوم عيد: ما هذا الذي أظهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا يوم عيد لهم. فقال: كلُّ يوم لا يُعصى الله ﷻ فيه، فهو لنا عيد[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وكذلك إذا استغنى بالعافية. قال بعضهم: إنَّما قال فرعون: أنا ربُّكم الأعلى، لطول العافية؛ لأنَّه لبث أربعمائة سنة لم يُصدَّع له رأس، ولم يُحَمَّ له جسم، ولم يضرب عليه عرق، فادَّعى الربوبيَّة ـ لعنه الله ـ ولو أخذته الشَّقِيقة (الصداع النِّصْفي) يومًا لشغلته عن الفضول، فضلًا عن دعوى الربوبية!

وقال ﷺ: «**أكثروا من ذكر هاذم اللَّذات**»[2]. وقيل: الحُمَّى رائد الموت، فهو مُذكِّر له ودافع للتسويف.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، قيل: يُفتنون بأمراض يُختَبرون بها.

---

(١) انظر: قوت القلوب (٣٨/٢).

(٢) رواه أحمد (٧٩٢٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والتِّرْمذي في الزهد (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الجنائز (١٨٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ويقال: إنَّ العبد إذا مرض مَرْضتين ثم لم يتُب، قال له مَلَك الموت: يا غافل، جاءك منِّي رسول بعد رسول فلم تُجب!» اهـ[١].

والخلاصة: أنَّ الأصل هو التَّداوي، اقتداءً بالثابت المُحْكَم عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وخصوصًا إذا اشتدَّ الوجع، ووُجِدَ الدواء الناجع وَفْق سُنَّة الله تعالى، فإذا كانت هناك صوارف خاصَّة لبعض الصالحين تصرفهم عن التَّداوي لأسباب، كالتي شرحها الإمام الغزالي، فيمكن أن تُقبل في الجملة، وهي أسباب جزئيَّة في أحوال خاصَّة تُقدَّر بقدرها، والله أعلم.

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢٨٦ ـ ٢٨٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفصل السادس

من ثمار التَّوكُّل على الله

التَّوكُّل على الله تعالى: شجرة طيِّبة، لا تؤْتي إلا ثمارًا طيِّبة، في النفس وفي الحياة: حياة الفرد، وحياة الجماعة من خلاله.

السكينة والطمأنينة:

١ ـ أُولى هذه الثمار: سكينة النفس، وطمأنينة القلب، التي يشعر بها المتوكِّل على ربِّه، ويحسُّ بها تملأ أقطار نفسه، فلا يحسُّ إلا الأمن إذا خاف الناس، والسكون إذا اضطرب الناس، واليقين إذا شكَّ الناس، والثبات إذا قلق الناس، والأمل إذا يئس الناس، والرضا إذا سخط الناس.

إنَّه أشبه بجندي أَوى إلى حصْن حصين، فيه فراشه وطعامه، وذخائره وسلاحه، يَرى منه ولا يُرى، ويَرمي ولا يُرمَى، فلا يهمه ما يدور في الخارج من صخب الألسنة، أو اشتجار الأسنَّة.

إنَّها الحالة التي وجدها موسى عليه السلام، حين قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

إنَّها الحالة التي وجدها النبي ﷺ في الغار حين أشفق عليه أبو بكر، فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

إنَّها الحالة التي وجدها إبراهيم الخليل حين أُلقي في النار، فلم

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

يشتغل بسؤال مخلوق من إنس أو مَلَك! ولم يشتغل إلا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل[١].

وفي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣][٢].

دخلت مرة أحد المساجد في مدينة إستانبول، فوجدتُ فيه بيتين من الشعر كتبا بخط جميل، فحفظتهما. يقول الشاعر:

فوحقِّه لأسلِّمنَّ لأمره ... في كلِّ نازلة وضيق خناقِ!
موسى وإبراهيم لما سلَّما ... سلما من الإغراق والإحراق!

إنَّها الحالة التي وجدتها هاجر حين وضعها إبراهيم مع ابنها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، في مكَّة عند مكان البيت المُحرَّم، ولا أنيس ولا جليس، ثم ودَّعها قافلًا، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: هو إذن لا يضيعنا[٣]!

القوَّة:

٢ ـ ومن هذه الثمار: القوة التي يحسُّ بها المتوكِّل على الله. وهي قوة نفسيَّة روحيَّة، تصغر أمامها القوة الماديَّة، قوة السلاح، وقوة المال، وقوة الرجال[٤].

---

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ٩٣ ـ ١٣٢، فصل: سكينة النفس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٣) سبق تخريجه صـ ٧٤.

(٤) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ٢٦٧ ـ ٢٤٦، فصل: القوة.

QaradawiBooks.com

وفي حديث ضعيف: «**مَن سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتَّقِ الله، ومَن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله، ومَن سرَّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده**»[(١)].

نجد ذلك واضحًا في موقف شيخ الأنبياء نوح، وقد كذَّبه قومه، واتَّهموه بالجنون، وأصرُّوا واستكبروا استكبارًا، واتَّبعوا مَن لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، فواجههم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢].

ونلمس هذه القوَّة في موقف نبيِّ الله هود أمام قومه «عاد» الذين أنكر عليهم شركهم وفسادهم وتجبُّرهم، وهم الذين بنوا بكل ريع آية يعبثون، واتَّخذوا قصورًا ومصانع لعلهم يخلدون، وإذا بطشوا بطشوا جبَّارين، وهم الذين استكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: مَن أشدُّ منا قوة؟

لقد جابههم هود عليه السلام ودعاهم إلى التوحيد والاستقامة وتقوى الله فـ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]، ولم يبالِ هود بهذا الهُراء، ووقف يقول في يقين القوي، وقوة الموقن: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي

(١) رواه الحاكم في الأدب (٢٧٠/٤)، وسكت عنه، وتعقبه بقوله: فيه هشام بن زياد، وهو متروك، ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني، فبطل الحديث. وحسبه أن يكون من كلام بعض السلف.

QaradawiBooks.com

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ۞ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٧].

فهو يقف موقف التحدِّي للمشركين وآلهتهم المزعومة، معتمدًا على ربِّه وربِّ كلِّ شيءٍ، فهم جميعًا في جانب، وهو وحده في جانب، معهم القوة والعدد، وليس معه من الخلق أحد، بَيْد أنَّ معه القوَّة التي لا تُقهر، قوة الله الغالب، الآخذ بناصية كلِّ دابَّة، الحكيم في صنعه وتدبيره، فلا يفعل شيئًا عبثًا، ولا يدع شيئًا اعتباطًا: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

ونشاهد هذه القوَّة في موقف سيدنا شعيب، حين ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۞ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

ونبصر هذه القوَّة في موقف المؤمنين من أصحاب «طالوت»، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا (عِدَّة أهل بدر) وقد لقوا عدوًّا أكثر عددًا وعُدة، وهو «جالوت» وجيشه الكثيف، حتَّى قال مَن قال من رجال «طالوت»: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهنا تجلَّى توكُّل الفئة المؤمنة وقوتها النفسيَّة: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١].

QaradawiBooks.com

وندرك هذه القوة في موقف صحابة رسول الله يوم الأحزاب، وقد تجمَّعت جيوشهم وحاصرت المدينة، فلم يفُتَّ ذلك في عضُد المسلمين، بل كانوا كما وصفهم الله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. ثم ذكر لنا نموذجًا منهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأعظم من ذلك: موقفه ﷺ، وهو يحفر الخندق، ثم هو يَعِدُ أصحابه بفتح اليمن، وفتح مملكتي كسرى وقيصر، وهو ما جعل أهل النفاق يتندَّرون ويسخرون: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وكذلك كان شأن المنافقين أبدًا، يتَّهمون المؤمنين من أصحاب النبيِّ الكريم بالتهوُّر والغرور؛ وذلك لأنَّهم لا يبالون بعدد عدوهم ولا عدته، متوكِّلين على الله تعالى. يقول الله في سورة الأنفال التي عقب فيها على غزوة بدر: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

أجل، عزيز لا يذلُّ من لاذ بجنابه، حكيم لا يضيع مَن وثق بتدبيره.

وفي جهاد عصرنا رأينا الفئة القليلة تنتصر على الفئة الكثيرة بالتَّوكُّل على الله تعالى، والحرص على الشهادة في سبيل الله. كما في حرب الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وكما في جهاد أفغانستان ضد الغزو الشيوعي السوفييتي، وكما في صمود إخوتنا في البوسنة ضد العدوان الصِّربي.

لقد بدأ الإخوة في أفغانستان جهادهم بعدد قليل من المسدسات والبنادق القديمة، معتمدين على الله تعالى أن يشد أزرهم، ويوفقهم لأخذ

QaradawiBooks.com

السلاح من عدوهم. وما زالوا يقاتلون بإمكاناتهم المحدودة، حتَّى هيَّأ الله لهم الأسباب التي تمدهم بالسلاح، حتَّى من أعتى قوى الكفر، التي لا تريد خيرًا للإسلام. فقد خوَّف الله بعضهم من بعض، وكان من وراء ذلك خير للمسلمين. وهذا ما كان يدعو به بعض السلف: اللهمَّ اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين.

العِزَّة:

٣ ـ ومن ثمار التَّوكُّل: العِزَّة، التي يحسُّ بها المتوكِّل، فترفعه مكانًا عليًّا، وتمنحه مُلكًا كبيرًا، بغير عرش ولا تاج، وهي قبس من عزَّة المتوكَّل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

فالمتوكِّل هنا عزيز بغير عشيرة، غنيٌّ بغير مال، ملك بغير جنود ولا أتباع.

أجل هو ملك، ولكنه من ملوك الآخرة، لا من ملوك الدنيا. فملوك الدنيا يشعرون بحاجتهم إلى مَن حولهم من الأتباع والأنصار، كما يشعرون بالخوف على مُلْكهم أن يزول بالكيد من الداخل، أو بالغزو من الخارج، أو بالموت الذي لا يفرق بين مَلِك وسُوقَة.

أمَّا ملوك الآخرة فقلوبهم مُعلَّقةٌ بالله تعالى، لا يرجون إلا رحمته، ولا يخافون إلا عذابه. فهم كما وصفهم الشاعر:

عبيدٌ، ولكنَّ المُلُوكَ عَبِيدُهم وعبْدُهمو أضحى له الكَوْنُ خادمَا[1]!

(١) هو السيد مصطفى البكري والبيت من قصيدته الميمية، انظر: شرح ورد السحر لعمر جعفر الشبراوي صـ ١١، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

QaradawiBooks.com

قال أحد الخلفاء لأحد علماء السَّلَف الصالح يومًا: ارفعْ إلينا حوائج دنياك نقضِها لك! قال: إني لم أطلبها من الخالق، **فكيف أطلبها من المخلوق؟!**

يريد أن الدنيا أهون عنده من أن يسألها من الله تعالى، فهو إذا سأل ربَّه يسأله ما هو أعظم وأعلى من الدنيا، وهو الآخرة والجنة ورضوان الله تبارك وتعالى.

ولذا كان بعض الصالحين يقول عن أمراء زمانه: اللهمَّ أغنِنا عنهم، ولا تغنِنا بهم!

إنَّ العزَّة لا تُطلب عند أبواب السلاطين، بل هي لا تُطلب إلا من باب واحد ذكره القرآن فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وبيَّنَ أنَّ طلب العِزَّة من عند غيره إنَّما هو شأنُ المنافقين المدخولين في إيمانهم: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وروى ابن عطاء الله عن شيخه أبي العباس المرسي أنَّه سمعه يقول: والله، ما رأيت العزَّ إلا في رفع الهمَّة عن الخلق.

قال: وكان يقول رحمه الله: للناس أسبابٌ، وسببنا نحن الإيمان والتقوى... قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يعني: وليس من الإيمان والتقوى مدّ الأيدي ولا الأعين إلى ما عند الخلق.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال ابن عطاء الله: اعلم أنَّ رفع الهمَّة عن الخلق شأن أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق.

وقال: وكان بعض العارفين ينشد:

حرامٌ على من وحَّد اللهَ ربَّه وأفرده أن يجتدي أحدًا رِفْدَا!
ويا صاحِبِي قِفْ لي مع الحقِّ وَقْفَةً أموتُ بها وَجْدًا، وأحيا بها وُجْدَا!
وقلْ لمُلُوكِ الأرضِ تجهَدْ جَهْدَها فذا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

يقول ابن عطاء الله: «ورفع الهمَّة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدقُ الثقة بالله إنَّما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة، فيُوجب لهم إيمانهم:

الاعتزاز بالله، قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والنصر من عند الله، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والنجاة من العوارض الصَّادَّة عن الله، قال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

فعزُّ المؤمن بالله ثقته بمولاه، ونُصْرته على نفسه وهواه، ونجاتُه من العوارض أن تقطعَه عن سبيل هداه.

وشعار أهل الإرادة ودثارهم: الاكتفاء بالله، ورفع الهمَّة عما سواه، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع في غير الملك المنان.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

ولنا في هذا المعنى:

اللهُ يعلمُ أنَّني ذو همَّةٍ ... تأبى الدَّنَايا عِفَّةً وتطرُّفَا
لِمَ لا أصونُ على الورى دِيبَاجَتِي ... وأريهمُو عزَّ الملوكِ وأشْرَفَا؟
أأريهمو أنِّي الفَقِيرُ إليْهِمُو ... وجميعُهم لا يستطيع تَصَرُّفَا؟
أم كيف أسألُ رِزْقَه مِن خَلْقِه؟ ... هذا ـ لعَمْري إن فعلتُ ـ هو الجَفَا
شكوى الضعيفِ إلى ضعيفٍ مثله ... عجزٌ أقام بحامِلِيه على شَفَا
فاسْتَرْزِقِ اللهَ الَّذي إحسانُه ... عمَّ البريَّة منَّةً وتعطُّفَا
والْجَأْ إليه تَجِدْه فيما تَرْتَجِي ... لا تَعْدُ عن أبوابِه مُتَحَرِّفَا

والذي يوجب لك رفع الهمَّة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك، ومنحك وأعطاك، ولم يُبق لك حاجة عند غيره».

ومن أقوال ابن عطاء الله هنا:

قبيح منك أن تكون في دار ضيافته، وتوجِّه وجه طمعك لغيره!

لا تتطلب ممَّن هو عنك بعيد، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال سبحانه: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]. كل ذلك ليجمع همَم عباده عليه، وكيلا يرفعوا حوائجهم إلا إليه[1]!

(١) انظر: لطائف المنن لابن عطاء السكندري صـ ١١٠ ـ ١١٣ بتصرف واختصار.

QaradawiBooks.com

الرضا

٤ ـ ومن ثمرات التَّوكُّل على الله: «الرضا» الذي ينشرح به الصدر، وينفسح له القلب. قال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلًا، وجدت إلى كل خير سبيلًا[١].

وبعضهم جعل «الرضا» جزءًا من ماهية التَّوكُّل، أو درجة من درجاته.

قال بعضهم: التَّوكُّل هو الرضا بالمقدور.

وقد ذكرنا قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكَّلتُ على الله، يكذب على الله، لو توكَّل على اللهِ رَضِيَ بما يفعلُ اللهُ.

وسُئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: إذا رَضِيَ بالله وكيلًا[٢].

والراجح ما ذهب إليه ابن القيِّم: أنَّ الرضا ثمرة التَّوكُّل، ومَن فسَّر التَّوكُّل به فإنَّما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده، فإنَّه إذا توكَّل حقَّ التَّوكُّل رضي بما يفعله وكيله.

قال: «وكان شيخنا رحمه الله يقول: المقدور يكتنفه أمران: التَّوكُّل قَبْلَه، والرضا بَعْدَه، فمَن توكَّل على الله قبلَ الفعل، ورَضِيَ بالمَقْضِيِّ له بعدَ الفعل، فقد قام بالعبوديَّةِ. أو معنى هذا»[٣].

ومن لوازم الرضا وتوابعه: الفرح والرَّوْح[٤]، وهو ما روي في حديث

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢٤٥).

(٢) الرسالة القشيرية (١/٢٩٩).

(٣) مدارج السالكين (٢/١٢٢).

(٤) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ١٣٣ ـ ١٥٤، مبحث: الرضا.

QaradawiBooks.com

ابن مسعود مرفوعًا: «**إنَّ الله ﷻ بقسطه وعدله جعل الفرح والرَّوْح في الرضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزن في السخط والشك**»[(١)].

إنَّ المتوكِّل موقِن أنَّ تدبير الله خيرٌ له من تدبير نفسِه، وأنَّه أبدًا في كفاية الله تعالى وكفالته ووكالته، وكفى بالله وكيلًا، وكفى بالله كفيلًا. ولهذا ألقى حموله وهمومه عند باب ربِّه فاستراح من الهمِّ والعناء. وأنشد مع الشاعر:

سَهِرَتْ أعيُنٌ ونامت عُيُونُ ... في أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ
إنَّ ربًّا كفاك بالأمسِ ما كا ... نَ سيَكْفِيكَ في غدٍ ما يَكُونُ[(٢)]

الأمل:

٥ ـ ومن ثمرات التَّوكُّل: الأمل في الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، وانقشاع الغمَّة، وانفراج الكربة، وانتصار الحقّ على الباطل، والهُدى على الضلال، والعدل على الظلم.

فالمتوكِّل على الله لا يعرف القُنُوط إلى قلبه سبيلًا، ولا يغلبه اليأس. فقد علَّمه القرآن أنَّ القنوط من لوازم الضلال، واليأس من توابع الكفر.

قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ **قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ [الحجر: ٥٦].

---

(١) رواه الطبراني (٢١٥/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩١): رواه الطبراني في الكبير وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع.

(٢) من شعر عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري القرطبي، كما في الذيل والتكملة (١٩٥/٢)، تحقيق د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

وقال على لسان يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال ذلك إبراهيم في مقام إنجاب الشيخ الهَرِم بعد أن أصابه الكبر.

وقال ذلك يعقوب في مقام البحث عن يوسُف وأخيه بعد أن طال فراقه ليوسُف، وانقطاع أخباره عشرات السنين، ولكنه لم يفقد الأمل، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

إنَّ المتوكِّل على الله يعلم أنَّ الْمُلْكَ كلَّه بيد خالقه ومدبِّر أمره، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يُؤْتي الْمُلْك مَنْ يشاء، ويَنْزع الْمُلْك ممَّنْ يشاء، ويُعزُّ منْ يشاء ويُذلُّ منْ يشاء، بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ.

إنْ شاء أغنى الفقير، وأفقر الغني، وقوَّى الضعيف، وأضعف القويَّ، ونصر المظلوم، وأخذ الظالم، وشَفَى المريض، ويسَّر على المعسر، وأعز الذليل، وأذلَّ العزيز، قد يفعل ذلك بأسباب معتادة معروفة، وقد يفعله بأسباب غير مألوفة، لا حَجْر على مشيئته، ولا ينازعه أحد في سلطانه. قد يستدرج الظالم ويُملي له سنين، حتَّى يتوهم أنَّ الله قد نسيه! وقد يأخذه في لمح البصر أو هو أقرب. وقد يغيث الملهوف، ويُنَفِّس عن المكروب، من حيث لا يحتسب هو ولا يحتسب الناس من حوله.

ما بينَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وانتباهتِها يُغيِّر اللهُ من حالٍ إلى حالِ[1]

(١) البيت بلفظ مقارب في ديوان الطغرائي صـ ٢٠٨، تحقيق د. علي جواد الطاهر، ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

إنَّ دوام الحال من المحالِ، وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسرًا، وسيُطلِع بعد كلِّ ليل فجرًا.

ولرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفَتَى ذَرْعًا، وعندَ اللهِ منها المَخْرَجُ
ضاقت فلمَّا استحكمت حلقاتها فُرِجَتْ، وكنت أظنها لا تُفرج[١]

إذا قال قائل: لا يأسَ مع الحياة، ولا حياةَ مع اليأس؛ فنحن نقول: لا يأسَ مع التَّوكُّل، ولا توكُّلَ مع اليأس[٢].

وقد وجدنا النبي ﷺ أوسع الناس أملًا في الغد، ورجاءً في النصر، حتَّى في يوم الهجرة، وهو راحل من بلده، مُطارَد من قومه، يقول لسراقة بن مالك الذي يطارده، رغبةً في جائزة قريش: «**كيف بك إذا ألبسك الله سوارَيْ كِسْرى؟**»، فيقول الرجل: كسرى بن هُرْمُز؟! فيقول: «**نعم، كسرى بن هرمز**»[٣].

ويقول لخبَّاب، وقد جاءه يشكو من شدَّة ما يلقى من العذاب، ويسأل أن يدعوَ الله على المشركين فيدمِّر عليهم، ويريح المؤمنين من شرِّهم وأذاهم، فيغضب النبي الكريم، ويبيِّن له ما حَدَث لمن قبلنا من المحن، ثم يقول مُبشِّرًا: «**والذي نفسي بيده، لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتَّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[٤].

---

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي، كما في الفرج بعد الشدة التَّنُوخي (١٥/٥)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٢) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ١٦٤ ـ ١٧٤، فصل: الأمل.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤١٢/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٤) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

QaradawiBooks.com

وقد تحقق كلُّ ما بَشَّرَ به النبي ﷺ سراقةَ وخبَّابًا.

فيا أيُّها المظلوم والمغلوب، ويا أيُّها الملهوف والمكروب، ويا أيُّها المجروح والمنكوب، لا تيئس، وإن توالت عليك الخطوب، وسُدَّت في وجهك الدروب، فـإنَّ علَّام الغيوب، وغفَّار الذنوب، وسـتَّار العيوب، ومُقلِّب القلوب، سـيُفرِّج عنك الكروب، ويُحقِّق لـك المطلوب، كما كشف الضُّرَّ عن أيوب، وردَّ يوسُف على يعقوب.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۞ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٨].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل السابع

من بواعث التَّوكُّل

لكلِّ عملٍ من أعمال القلوب أو الجوارح بواعثُ تدفع إليه، وتحضُّ عليه.

وممَّا يبعث على التَّوكُّل، ويعين عليه جملة أمور:

١ ـ معرفة الله بأسمائه الحسنى:

أوَّلها: حُسن معرفة الله تعالى بأسمائه الحُسنى، وصفاته العُلا. فمَن عرف ربَّه رحمانًا رحيمًا، عزيزًا حكيمًا، سميعًا عليمًا، حيًّا قيومًا، غنيًّا حميدًا، خبيرًا بصيرًا، قهَّارًا قديرًا، رزَّاقًا ذا قوة متينًا، لا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه شيء، فعَّالًا لما يريد، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وجد نفسه مدفوعًا إلى الاستناد إليه، والتَّوكُّل عليه.

ولذا نقل ابن القيِّم عن شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى: أنَّ التَّوكُّل لا يصح ولا يُتصور من فيلسوف[1]، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في مُلْكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضًا من الجهمية النفاة لصفات الرب جلَّ جلاله، ولا يستقيم التَّوكُّل إلا من أهل الإثبات.

(١) مثل أرسطو الذي يرى أن الإله لا يعلم عن الكون شيئًا، ولا يدبر فيه أمرًا!

QaradawiBooks.com

فأيُّ توكُّل لمن يعتقد أنَّ الله لا يعلم جزئيات العالَم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره، ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم به صفة. فكل مَن كان بالله وصفاته أعلم وأعرف، كان توكُّلُه أصحَّ وأقوى[1].

ومن ثَمَّ كان التَّوكُّل من خصائص دين التوحيد، المتجسِّد في دين المسلمين، الذي تميَّز بإثبات صفات الكمال المطلق لله تعالى من العلم والحكمة، والمشيئة والقدرة، والغنى والرحمة، والحياة والقيّوميَّة، وسائر الكمالات الإلهيَّة. بخلاف غيرهم ـ كالغربيين ـ الذين يرون أنَّ الله خلق العالَم أزلًا ثم تركه يسير بالنواميس، ولم يعد يدبِّر فيه أمرًا!

أمَّا عندنا نحن المسلمين، فالْمُلْك كلُّه بيد الله، وتحت سلطانه، يبسط ويقبض، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويُحيي ويُميت، ويُعزُّ ويُذل، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه.

فكلَّما قَويت معرفة المرء بربِّه، وقَدَره حقَّ قدره، وتجلَّت له معاني أسمائه وصفاته، قوي اعتصامه به، واعتماده عليه، وكان له نِعْم الوكيل، ونِعْم المولى، ونِعْم النصير.

ولهذا نجد القرآن يربط التَّوكُّل بعدد من أسماء الله الحسنى، لما لها من إيحاء ودلالة وتأثير.

أكثرها وأعظمها: لفظ الجلالة وهو الاسم الجامع لكلِّ الكمالات: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩].

(١) انظر: مدارج السالكين (١١٨/٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومنها: اسم: «الرحمن» منفردًا: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، واسم: «الرحيم» مقرونًا بغيره: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، والرحمن الرحيم لا تضيق رحمته الواسعة بمن لجأ إليه واعتمد عليه.

ومنها: اسم: «العزيز» مقرونًا بغيره كالرحيم والحكيم: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩]. عزيز: أي لا يذل مَن لاذ بجنابه وأوى إلى حماه، حكيم: لا يضيع مَن وثق بحُسن تدبيره لمن تولاه.

ومنها: اسم: «الرب» كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

ومنها: اسم: «الحي» كما في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فالذي يعتمد على الخلق يعتمد على حيٍّ يعتريه الموت. أما من يعتمد على الله، فهو يعتمد على حيٍّ لا يموت: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

ومنها: اسم: «السميع العليم» كما في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]؛ فهو يسمع دعاء من دعاه، جهرًا أو سرًّا، ويعلم ما تُكنُّه الصدور: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

ولذا ذكر ابن القيِّم: أنَّ التَّوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحُسنى، فإن له تعلُّقًا بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم: «الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم»، وتعلق باسم: «الفتَّاح، والوهَّاب، والرزَّاق، والمعطي، والمحيي»، وتعلق

QaradawiBooks.com

باســم: «المعز المذل، الخافض الرافع المانع» من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء: «القدرة والإرادة»، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحُسنى؛ ولهذا فسَّره مَن فسَّره من الأئمة بأنه: «المعرفة بالله»[(١)].

إنَّ الإنسان إذا اعتمد على مخلوق مثله، وكان ذا كفاية وهِمَّة، قال له: لا تحملْ همًّا، لقد اعتمدتَ على رجل! كما قيل:

إذا داهَمَتْكَ صعــابُ الأمورِ فنبِّه لهــا عُمَــرًا ثمَّ نَــمْ[(٢)]!

فكيف بالاعتماد على الربِّ الأعلى؟

٢ ـ الثقة بالله تعالى:

ثانيها: الثقة به ﷻ، وهي ثمرة المعرفة، فــإذا عرف الله حق معرفته وثق به ثقة مطلقة، تسكن إليه نفسه ويطمئنُّ بها قلبه.

ومن ذلك: الثقة بشمول علمه، وكمال حكمته، وسَعَة رحمته، وعموم قدرته، وطلاقة مشيئته. وأنَّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل أبر بهم من أنفسهم، وأعلم بمصالحهم من ذواتهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن ذلك: الثقة بوعده الذي سجَّله في كتابه وعلى لسان رسوله: أنَّه ولي الذين آمنوا والمدافع عنهم، والمنجي لهم، وأنه ناصرهم على عدوه وعدوهم، وأنه معهم بتأييده وعنايته، وأنه لا يُخلف الميعاد. وأنه يُملي

(١) انظر: مدارج السالكين (١٢٤/٢ ـ ١٢٥).

(٢) البيت لبشــار بن برد، كما في ديوانه صـ ٢١٦، تحقيق الســيد برد الدين العلوي، نشــر دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

للظالمين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأنه يمهل، ولا يهمل، وأنه للفراعنة والطغاة بالمرصاد.

ومن ذلك: الثقة بما تكفَّل به من الرزق لخلقه، فقد وعد بذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ثم أكَّد الوعد بالضمان: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ثم أكَّد الضمان بالقَسَم: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

فالواثق بوعد الله تعالى وضمانه لا يخاف فوت رزقه أبدًا، فإنَّ أحدًا لا يستطيع أن يأكل من رزقه، كما أنَّ أحدًا لا يستطيع أن يُقدِّم من أجله.

وقد جعل صاحب «منازل السائرين» الثقة بالله تعالى منزلة أخرى غير منزلة «التَّوكُّل» وغير منزلَتَيِ «التفويض» و«التسليم»، وقد جعل كلًّا منهما منزلة مستقلة أيضًا.

قال رحمه الله تعالى: «الثقة: سواد عَيْن التَّوكُّل، ونقطة دائرة التَّفْويض، وسويداء قلب التَّسْليم».

وصدَّر الباب بقوله تعالى لأمِّ موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فإن فعلها هذا ـ كما يقول ابن القيِّم ـ هو عَيْن ثقتها بالله تعالى. إذ لولا كمال ثقتها بربها، لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيَّار الماء، تتلاعب به أمواجه وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف[1].

(١) مدارج السالكين (١٤٢/٢).

QaradawiBooks.com

والذي ينقدح لي: أنَّ «الثقة» ليست منزلة مستقلَّة، ولذا لم يرد نصٌّ خاص بها في الكتاب أو السُّنَّة. وإنَّما هي دافع إلى التَّوكُّل وباعث عليه. وكلَّما ازدادت ثقة العبد بربِّه وتوثَّقت عُرَاها، قوي توكُّلُه على الله تعالى، ورسخت جذورُه، وبسقت فروعُه.

والموظف لأنَّه واثق بأنه يقبض في مطلع كل شهر راتبًا معيَّنًا، التزمت به الحكومة. فهو يرتب حياته على هذا الأساس، لثقته بها، ولهذا لو اضطربت أحوال حكومة ما، وغدت خزينتها مهدَّدة بالعجز عن دفع المستحقَّات، ضعفت هذه الثقة عند الموظفين، وربما انعدمت. فمَن وعده ملك الملوك لا تهتز ثقته به بحال.

وكذلك مَن أعطاه ملك درهمًا فسرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه، فلا تهتم، متى جئت إليَّ أعطيتك من خزائننا أضعافه. فإذا علم صحَّة قول الملك، ووثق به، واطمأنَّ إليه، وعلم أنَّ خزائنه مليئة بذلك، لم يحزنه فوته.

٣ ـ معرفة الإنسان بنفسه وعجزه:

وثالث هذه البواعث على التَّوكُّل: معرفة الإنسان بضعفه الفطري، وعَجْزِه الذَّاتي، ومحدوديَّة علمِه وإرادته وقدرته، فقد خلقه الله ضعيفًا، وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وأعطاه أدوات: السمع، والبصر، والفؤاد؛ ليتعلم ما لم يكن يعلم. كما منحه من الإرادة والقدرة ما يمكنه من أداء رسالته في الأرض.

ولكن يظلُّ علمه علم بشر، وإرادته إرادة بشر، وقدرته قدرة بشر. أي: مخلوقٍ مُحْدَثٍ مسبوقٍ بالعدم، وملحوق بالموت. فوجودُه وحياتُه

QaradawiBooks.com

وعلمُه وكينونته كلُّها ليســت بذاته ولا من ذاته، بل بربِّه ومن ربِّه ﷻ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢]، ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٧].

ومن هنا يعلم الإنسان حقَّ العلم، ويوقن حقَّ اليقين أنْ: لا حول له ولا قُوَّة إلا بالله، الذي خلقه فسوَّاه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وأسبغ عليه نعمَه ظاهرة وباطنة. فما بــه من نعمة العلم، أو نعمة القدرة، أو نعمة الحياة والوجود، فهي من الله وبالله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وهذا من أعظم البواعث لتعلُّق العبد بربه: تعلق العاجز بالقدير، والضعيف بالقــوي، والفقير بالغني، والجهــول بالعليم، والمُحْدَث بالقديم، والذليل بالعزيــز، والفاني بالباقي. وبعبــارة أخرى: تعلُّق المربوب بالربِّ، والمخلوق بالخالق، والميِّت بالحيِّ الذي لا يموت. تعلُّق مَن لا يملك شيئًا بمن يملك كل شيء، ومَن لا يقْدر على شيء بمن هو على كلِّ شــيء قديــر، ومَن لا يعلم متى يمــوت، ولا أين يموت، ولا كيف يموت، بمن لا يخفى عليه شــيء في الأرض ولا في الســماء. وهذا التعلق بالله تعالى والالتجاء إليه، والاعتماد عليه سبحانه هو: التَّوكُّل.

إنَّ معرفة الإنسان بنفســه باب إلى معرفة ربِّه. ولهذا قال العارفون: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربَّه».

ولهذا كان أبْعدَ الخلق عن التَّوكُّل المغرورون بأنفســهم، المعجبون بعلمهم، المعتزُّون بقوَّتهم، المزهــوون بما يملكون من ثروة أو موهبة،

QaradawiBooks.com

بحيث يحسبون أنَّهم استغنوا عن الله تعالى. كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فسبب طغيانه: رؤيته لنفسه في حالة استغناء عن غيره، وربَّما توهَّم أنه مستغنٍ عن ربِّه جَلَّ شأنه.

حَسِب ابن نوح الكافر أن قوَّته ستعصمه من الغرق، إذا جاء الطوفان، وأنَّه يستطيع أن يأوي إلى جبل يحميه، وجهل أنه لا عاصم من أمر الله إذا حُمَّ القضاء.

وزعم قارون أنَّ كنوزه التي تنوء مفاتحها بالعصبة أُولي القوة ستحميه من بأس الله إذا جاء، ولم يستمع لنصيحة قومِه بشأن ماله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، حتَّى خسف الله به وبداره الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

سمعت قصة رجل من كبار الأثرياء المتغطرسين، خوَّفه بعض جلسائه يومًا من غدرات الزمن وتقلُّبات الأيام، فقال: إنَّ عندي أموالًا تكفيني أعمارًا بعد عمري، وهي تزيد ولا تنقص. ولو أنَّ الفقر ركب جوادًا سريعًا لمدة سنة أو أكثر ليلحق بي، لم يستطع!

قال مُحدِّثي: لقد عشتُ حتَّى رأيت هذا الرجل يقبل الصَّدقة مِن بعض مَن كانوا يعملون عنده أُجراء.

إنَّ المعجب المغرور محجوب عن رؤية نفسه، فهو لذلك محجوب عن معرفة ربِّه. ومَن عميت بصيرتُه إلى هذه الدرجة لم يُتصوَّر منه الاتِّكال على ربِّه. ولم يوقن بحقيقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

QaradawiBooks.com

إنما يُتصوَّر التَّوكُّل ممَّن يشعر بالافتقار إلى مولاه، وأنَّه لا يمكنه الاستغناء عنه طرْفة عين، ولا ما هو أقل منها.

وكان مما علَّمه النبي ﷺ لأُمَّته في علاج الكرب والضيق، قوله: «**دعواتُ المكروب: اللهمَّ رحمتَك أرجُو، فلا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عَيْنٍ، وأصلح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت**»(١).

وقال لابنته وأحبِّ الناس إليه: فاطمة الزهراء رضي الله عنها: «**ما يمنعُكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به؟! أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يا قيُّوم، برحمتِكَ أستغيثُ! أَصْلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»(٢).

ولذلك مثَّل المربُّون الصَّالحون حالَ المتوكِّل على الله الذي غمره الشعور بالحاجة الدائمة إليه، بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمِّه لا يعرف غيرها، بل لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى شيء سواه. كما قال بعض العارفين: المتوكِّل كالطِّفل، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلَّا ثَدْيَ أُمِّه. كذلك المتوكِّل لا يأوي إلَّا إلى ربِّه سبحانه!

٤ ـ المعرفة بفضل التَّوكُّل وأحوال المتوكِّلين ومعايشتهم:

ومن بواعث التَّوكُّل: المعرفة بفضله وفضل أهله، وما خصَّهم الله ورسوله به من حُسْن الثناء، وما وعدهم به من حُسْن الجزاء في الدنيا

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨)، عن أبي بكرة.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٣٣٠)، والبزار (٦٣٦٨)، والحاكم في الدعاء (٥٤٥/١)، وصححه على شرط الشيخين، وصحح إسناد النسائي المنذري في التَّرغيب والتَّرهيب (٩٨٤)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

والآخرة، وما يُعقبه التَّوكُّل من أطيب الثمرات في حياة الفرد والجماعة، ويكفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ورسوخ هذه المعرفة حتَّى تستحيل يقينًا دافعًا.

ومثل ذلك: مطالعة أحوال المتوكِّلين، من الذين أنعم الله عليهم، من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين، وعلى رأسهم: سيِّد المتوكِّلين محمد رسول الله ﷺ.

إنَّ معايشة سِيَر المتوكِّلين على الله من أعظم ما يُقوِّي القلب المتردِّد الضعيف في الاعتماد على الله، والتَّوكُّل عليه، والتفويض إليه.

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهم ... إنَّ التشبُّه بالرِّجالِ فلاحُ[1]

وأعظم من ذلك تأثيرًا: أن تجد من الأحياء مَن تأخذ عنه ذلك بالصحبة والقدوة، وقليلٌ ما هم، ولا تخلو الأرض منهم إن شاء الله. وقد قيل: إنَّ حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!

* * *

(١) من شعر السهروردي المقتول، كما في معجم الأدباء لياقوت الحموي (٢٨٠٨/٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. غير أن فيه (الكرام) بدل (الرجال).

QaradawiBooks.com

الفصل الثامن

عوائـق التَّوكُّـل

إذا عرفنا بواعث التَّوكُّل، سهل علينا أن نعرف عوائقه. فبضدها تتميَّز الأشياء، ولا بأس أن أشير إلى أبرز المعوِّقات:

١ ـ الجهل بمقام الله:

وأولها من غير شـك: الجهل بمقام الألوهيَّة، فمَـن لم يعرف ربّ الناس، ملك الناس، إله الناس، وما له سـبحانه من الأسـماء الحُسنى، والصِّفات العُلا، لا يُتصوَّر منه أن يتوكَّل عليه جلَّ جلاله.

مَن لم يعرف الله غنيًّا، له ما في السماوات وما في الأرض مِلكًا ومُلكًا، يحتاج إليه كل ما سـواه، ولا يحتاج إلى أحد مما سـواه. أخبر تعالى عن غناه في حديث قدسـي، فقال: «**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم، اجتمعوا في صعيد واحد، فسـألوني، فأعطيتُ كل واحد مسألته، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المِخْيط إذا أدخل البحر**»[(١)].

ولم يعـرف الله قديرًا، لا يحد قدرته حـد، ولا يعجزها ضد: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. تعمل قدرته تعالى من خلال الأسباب التي خلقها، وتعمل إن شاء سبحانه من غير الأسباب،

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

آية لنبي، أو كرامة لولي، أو إعانة لمظلوم، أو تفضُّلًا على محروم ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

ولمْ يعرف الله جوادًا كريمًا، يده سحَّاء الليلَ والنهار، يرزق البَر والفاجر، ويعطي المؤمن والكافر: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

ولمْ يعرف الله قهَّارًا، أخذ الجبابرة العتاة، المتألِّهين في الأرض، أخذ عزيز مقتدر، فما كان لهم من فئة ينصرونهم من دون الله وما كانوا من المنتصرين. كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

مَن لم يعرف الله تعالى بهذه الأسماء والصفات وسائر أسمائه وصفاته، لا يُنتظر منه أن يجعل اعتماده عليه، إذ كيف يعتمد على مَن لا يعرفه؟!

وربَّما تجده يعتمد على مخلوق مثله، ولا يعتمد على ربِّه؛ لأنَّه يعرف مقام الرئيس أو الوزير أو المدير، أو الغني، فهو يعتمد عليهم، ويثقُ بعونهم له، في حين لا يعرف مقام الذي خلقه فصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره.

مَثَلُه مَثلُ رجلٍ غريبٍ دخل مجلس قوم فيهم الملك، فهو يسأل بعض خدمه، أو بعض جنوده، ولا يسأل الملك نفسه؛ لأنَّه لا يعرفه، فإذا لم ينبهه مُنَبِّه على جهله وسوء تقديره، فسيمضي في الطريق الغلط، ولن يحصل على ثمرة، ولن تُقضَى له حاجة.

QaradawiBooks.com

٢ ـ الغرور بالنفس:

ومن العوائق كذلك: إعجاب المرء بنفسه، بل هو من المهلكات، كما جاء في الحديث: «**ثلاث مهلكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[(١)].

والمعجب بنفسه، المغرور بشبابه وبقوته، أو بماله وثروته، أو بجاهه ومنصبه، أو بأنصاره وعصبته، أو بغير ذلك ممَّا يعتز به الناس، لا يشعر بحاجته وافتقاره إلى الله، حتَّى يعتمد عليه، ويستند إليه، بل هو محجوب بنفسه عن ربِّه.

ويزداد المرء حجابًا عن ربِّه بنفسه، إذا وجد ممن حوله ألسنة زور، وأبواق نفاق، تعظِّمه وتضخِّمه وتنفخ فيه. وخصوصًا إذا كان ممَّن يرجونه أو يخشونه، من أهل الحكم، أو أرباب المال والجاه. كما حُكِيَ ذلك عن بعض الشعراء قديمًا، وكما يُحكى عن بعض الصحفيين حديثًا. كذلك الشاعر الذي قال لأحد ملوك العبيديين المعروفين باسم: «الفاطميين»:

ما شئتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكُمْ فأنت الواحدُ القهَّارُ[(٢)]!

---

(١) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس بن مالك.

(٢) من شعر ابن هانئ الأندلسي، قاله في المعز لدين الله الفاطمي، كما في الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٠٥/٧)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
ويروى أيضًا أنَّه لأبي الأصبغ عبد العزيز بن الخطيب في المنصور بن أبي عامر، وأن المنصور جلده وسجنه فيه ثم نفاه. انظر: البيان المغرب لابن عذاري المراكشي (٢٩٣/٢)، تحقيق ج. س. كولان، وإ. ليفي بروفنسال، نشر دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

وقول الآخر:

يا مَن ألوذُ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذُ به ممَّا أحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنت كاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنت جَابِرُهُ[1]

وقد أحسن أهل السلوك حين أخذوا هذا الشعر فناجوا به ربَّهم، فهو به أحق وأولى.

ولا تُزاح الغشاوة عن بصره، إلا إذا فقد ما يتَّكئ عليه من قوة أو مال أو جاه أو أنصار، فهناك يظهر على حقيقته مخلوقًا ضعيفًا عاجزًا لا حَوْل له ولا طَوْل.

ضرب القرآن مثلًا لذلك: صاحب الجنَّتَين ـ المذكور في سورة الكهف ـ الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۞ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٩].

وكانت نتيجة غروره أن احترقت جنَّته: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۞ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٢ ـ ٤٤].

---

(١) هو المتنبي قاله في جعفر بن كيغلغل، ولم ينشده إياها، انظر: ديوانه صـ ٤٣، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

وكم رأينا بأعيننا غنيَّ قومٍ افتقر، وعزيزَ قوم ذل، وملكًا معظَّمًا زال ملكه. وسبحان مَن لا يتغيَّر.

سُئِلتْ هندُ بنت النُّعمان بنِ المُنْذِرِ مَلِكِ العرب بالحِيرة عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذات صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا[1]!

وبكت أُختها حُرقة بنت النعمان يومًا، وهي في عزِّها، فقيل لها: ما يبكيكِ؟ لعل أحدًا آذاكِ! فقالت: لا، ولكن رأيت غضارة (أي: نعيمًا وطيب عيش) في أهلي، وقلَّما امتلأت دارٌ سرورًا، إلا امتلأت حزنًا! وقالت لبعض من دخل عليها: إنَّ الدهر لم يظهر لقومٍ بيوم يحبُّونه، إلا بطُن لهم بيوم يكرهونه، ثم أنشدت:

فبَيْنا نسوسُ النَّاسَ، والأمرُ أمرُنا ... إذا نحن فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فأُفٍّ لدنيا لا يدومُ نَعِيمُها ... تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ[2]

٣ ـ الركون إلى الخلق:

ومن موانع التَّوكُّل: الركون إلى الخلق، والاعتماد عليهم في قضاء الحاجات، والنُّصْرة في المُلمَّات، وتدبير الأمور، وتذليل الصِّعاب، ناسيًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان (١٠)، تحقيق د. نجم عبد الرحمن خلف، نشر دار البشير، عمان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد صـ ١٦٧. والبيتان في الحماسة لأبي تمام (٦١٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم العسيلان، نشر جامعة الإمام، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

فالابن الذي له أب من ذوي المال والجاه، أو له أسرةٌ عريقة، أو قبيلة كبيرة، أو كان من العائلة الحاكمة، أو الحزب الحاكم، إذا لم يكن من ذوي الإيمان، يحسُّ بأنَّه يستند إلى ركن ركين، ويتمسَّك بحبلٍ متينٍ، فلا يشعر بفقره إلى الربِّ الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى.

ومثل ذلك مَنْ كان مقرَّبًا من الملك أو الأمير أو الرئيس أو الوزير أو الثري المليونير، صاحب الشركة أو مدير المؤسسة، أو مَنْ شابه هؤلاء، فهو يظنُّ نفسه قويًّا بقوَّتهم، مستغنيًا بغناهم، فلا حاجة له إلى التَّوكُّل على الخالق، وقد توكَّل على الخلق، والتَّوكُّل لا يقبل الشَّرِكَة.

ولا يُفيق هذا الصنف من سكرته إلا إذا تغيَّر حال مَن اعتمد عليهم، فمات الملك، أو تغيَّر الأمير، أو عُزِل الرئيس، أو أُقيل الوزير، أو سقط الحزب الحاكم، أو ضعُف القوي، أو افتقر الغنيُّ وأفلس المليونير، الذي كان يركن إليه، ويتوكَّأ عليه.

ولهذا قال ابن عطاء الله في «حِكَمِه»: إن أردتَ أن يكون لك عِزٌّ لا يفنى، فلا تَستعزَّنَّ بعزٍّ يفنى!

وصدق، فكلُّ عزٍّ في الدنيا فهو فانٍ ـ كما قال العلامة زرُّوق في «شرح الحكم»: «لأنَّه إنَّما يكون بأسبابها، وهي فانية، وما ترتَّب على الفاني زال بزواله.

قال في «التنوير»: فإن اعتززتَ بالله دام عزُّك، وإن اعتززتَ بغير الله فلا بقاء لعزِّك، إذ لا بقاء لمن أنت به متعزِّز.

QaradawiBooks.com

وأنشد بعضُ الفضلاء لنَفْسِه:

اجعلْ بربِّكَ شأنَ عِزٍّ ... كَ يستقرُّ ويَثْبُتُ
فإنِ اعْتَزَزْتَ بمَنْ يَمُو ... تُ فإنَّ عِزَّكَ ميِّتُ

ويقال لك: إذا اعتززتَ بغير الله فقدته، أو استندتَ إلى غيره عُدِمته! ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۞ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٧، ٩٨]»[(١)].

على أنَّ الخلق لا أمان لهم، ولا ضمان لاستمرار ودّهم وحُسْن صلتهم، فكم منهم مَن عاهد فغدر، ومَن خاصم ففجر، ومن وعد فأخلف، ومَن اؤتُمن فخان.

كم من صديق أسلم صديقَه في ساعة الشدَّة، حتَّى قال الشاعر محذِّرًا:

احذَرْ عَدُوَّكَ مرَّةً ... واحذرْ صديقَك ألفَ مَرَّةْ!
فلربَّما انقلبَ الصديـ ... ـقُ فكان أعلمَ بالمَضَرَّة[(٢)]!

وكم من سلطان غدر بأقرب بطانته إليه، وآثَرِ خاصَّته لديه، لوشاية من حاسد، أو مكيدة من منافس، أو لظهور مَن يحلُّ محله، ممَّن يسارع في هوى السلطان أكثر منه، أو لغير ذلك من الأسباب التي دوَّنها التاريخ، والتي لم يدوِّنها التاريخ.

(١) انظر: شرح حكم ابن عطاء لزروق صـ ١١٢، تحقيق د. عبد الحليم محمود، نشر مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) من شعر القاضي ابن معروف البغدادي، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (١٢٧/٣)، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

وانظر «البرامكة» في عهد الرشيد، كيف كانوا، وكيف صاروا.

وقد تدرك المرء صحوة تتفتح فيها عين قلبه على الحقيقة، وهي أنَّ عجز الخلق عجز ذاتيّ، ولا قوَّة لهم من أنفسهم ولا بأنفسهم، ولا قوَّة لهم إلا بالله، وأن الجن والإنس لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوه بشيء، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وهنا لا يكون توكُّله إلا على مولاه.

٤ ـ حبُّ الدنيا والاغترار بها:

ومن موانع التَّوكُّل على الله: الاستغراق في حبِّ الدنيا والاغترار بسرابها، والجري وراء متاعها الأدنى، والتعلق بشهواتها وزينتها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

فمَن غرَّه هذا المتاع، وأفرغ في طلبه والحرص عليه فكره وقلبَه، لم يبق لديه متَّسع للتفكير في أمر آخر، فقد غدت الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، ومحور سعيه، وغاية وجوده، ولذا قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد علَّمنا النبيُّ ﷺ أن ندعوَ الله بهذا الدعاء: «**اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا**»[(١)].

(١) رواه التِّرْمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٤)، وحسَّنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

إنَّ عبيد الدنيا لا يمكنهم أن يخلصوا العبوديَّة لله، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ومن لم يخلص عبوديَّته لله لم يعرف التَّوكُّل عليه، فالتَّوكُّل من لوازم العبوديَّة لله ربِّ العالمين: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

لقد حذَّرنا الله تعالى من غرور الدنيا، كما حذَّرنا من غرور الشيطان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقد عرف الناس من تجاربهم من الدنيا أنَّ أشهر أوصافها «الغدر»، فما أسرع ما تتخلَّى عن عُشَّاقها وخُدَّامها أحوجَ ما يكونون إليها، وأكثر ما يكونون ركونًا إليها وتعويلًا عليها. وما أصدق ما قال الشاعر في وصفها:

هي الدُّنْيا تقولُ بمِلْءِ فِيها: حَذَارِ، حَذَارِ، من غَدْرِي وفَتْكِي
فلا يَغْرُرْكُمُو مِنِّي ابْتِسَامٌ فقَوْلِي مُضْحِكٌ والفِعْلُ مُبْكِي[1]!

ومن ثَمَّ عرَف أُولو الألباب أنَّ هذه الدنيا لا ثقة بها، ولا أمان لها، ولا اطمئنان إليها، ولا اعتماد عليها، فالإنسان فيها وإن أُوتِي ما أُوتي مُعرَّض ما بين لحظة وأخرى لبليةٍ نازلةٍ، أو نعمةٍ زائلةٍ، أو منيَّةٍ قاتلةٍ، ورحم الله أبا الحسن التِّهامي حين قال:

جُبِلت على كَدَرٍ، وأنت تريدُها صفوًا من الآلامِ والأَكْدَارِ!
ومكلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِبَاعِها متطلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ نَارِ[2]!

(١) من شعر أبي الفرج الساوي، كما في يتيمة الدهر (٤٥٨/٣).
(٢) البداية والنهاية (٦٠٨/١٥، ٦٠٩).

QaradawiBooks.com

وقد دخل بعضهم على أمير المؤمنين عليّ كـرَّم الله وجهه، فوجده يقول مخاطبًا الدنيا، كأنَّما يتمثَّلها أمامه، ويدفعها عنه بكلتا يديه: «إليكِ عني يا دنيا، غُرِّي غيري، قد طلقتكِ ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخَطبك حقير»[1].

فمَن عرف قيمة الدنيا وهوانها على الله، وكثرة جفائها، وسرعة فنائها، لم تقف حائلًا بينه وبين التَّوكُّل على الله تعالى.

إنَّما تُعتبر الدنيا حائلًا وعائقًا حقًّا دون التَّوكُّل على الله، لصنف من الناس، اتَّخذها ربًّا فاتَّخذته لها عبدًا. ومَن جعل نفسه عبدًا لغير الله لم يصحَّ منه توكُّلٌ على الله؛ لأنَّ التَّوكُّل فرع عبوديَّة القلب لله وحده، ولا تجتمع في القلب عبوديتان، و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

فيا سعادة مَن انتصر على هذه العوائق في طريق المتوكِّلين، فعرف مقام ربِّه ذي الجلال والإكرام، وعرف فقر نفسه وفاقته الذاتيَّة التي لا تفارقه، إلا إذا تحوَّل من مخلوق إلى خالق! وعرف ضعف الخلق وحاجتهم، وأنهم عباد أمثاله، لا يملكون لأنفسهم ـ ناهيك بغيرهم ـ ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وعرف قيمة الدنيا التي يتهافت الناس عليها من حوله، وأنَّها إن لم تَزُل عنه زال هو عنها. وتمكَّنت هذه المعرفة من قلبه حتَّى غدت يقينًا يغمره، ووجدانًا يعيشه، وإرادة تُحرِّكه، وهنا يدخل في زُمْرة المؤمنين حقًّا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

(١) رواه ابن أبي شيبة السير (٣٣٥٧١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧٨/٤٢).

QaradawiBooks.com

اللهمَّ إنَّا نسألك أن تجعلنا منهم، واغفر لنا إن قصَّرنا في اللحاق بهم.

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾	٥	١٣
سورة البقرة		
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾	٣٠	٦٩
﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾	٦١	٦٦
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾	١٨٦	١١٨
﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾	١٩٧	٥٢
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	١٩٨	٦٣
﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ ﴾	٢٤٩	١١٣
﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا ﴾	٢٥٠	١١٣
﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾	٢٥١	١١٣
سورة آل عمران		
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾	١٤	١٤١
﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾	٣٨	٣٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	١٠١	٤٠
﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾	١٥٩	٤، ١٥، ١٩، ٥٨، ١٢٥، ١٣٣
﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾	١٦٠	١٤، ١٧
﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾	١٧٣	١١١
سورة النساء		
﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾	٥	٥٧
﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾	٣٢	١١٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾	٧١	٥٠، ٥٧
﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾	٨١	٤، ١٥
﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم ﴾	١٠٢	٥١، ٥٨، ٦٠
﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۙ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾	١٣٨، ١٣٩	١١٦
﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ ﴾	١٤٨	٣٨
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾	٢	٧١
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾	٢٣	٤، ١٧، ١٩، ١٢٥
سورة الأنعام		
﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾	١٧، ١٨	١٣٥
﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾	١٤٨	٩٣
﴿ تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾	١٥١	٣٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٥٤	٩
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ ﴾	٨٨	١١٣
﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ ﴾	٨٩	٩، ١١٣، ١٢٥
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ ﴾	٩٦	١١٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾	١٩٤	٢٠، ١٣٨
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢	١٧، ١٤٣
﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾	٣	١٧
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾	٤	١٧
﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾	١٧	٨٠
﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾	٣٠	٣٩
﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾	٤٩	١٩، ١١٤، ١١٥، ١٢٦
﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾	٦٠	٥٠، ٥٧
﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾	٦١	١٥
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾	٧٣	٣٩
سورة التوبة		
﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ ﴾	٢٥	٧٧
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾	٤٠	٧٩، ١١٠
﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ ﴾	٥١	١٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾	٧١	٧١
﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾	١٠٣	١٦
﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾	١٢٦	١٠٨
﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ ﴾	١٢٩	١٦
سورة يونس		
﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾	٣١، ٣٢	٨٢
﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾	٧١	١٨، ١١٢
﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾	٧٢	١١٢
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾	٨٤ ـ ٨٦	١٨
﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	١٠٣	١١٧
سورة هود		
﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾	٦	٣٤، ١٢٨
﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾	٣٧	٤٧
﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾	٥٣	١١٢
﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ﴾	٥٤	١٨، ١١٢
﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾	٥٥	١٨، ١١٢
﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ ﴾	٥٦	١٨، ١١٢، ١١٢
﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ ﴾	٥٧	١١٢
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	٦١	٧٠
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾	٨٨	١٣، ١٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾	١١٤، ١١٥	١٦
﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾	١٢٣	١٥
سورة يوسف		
﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ﴾	٥	٤٨، ٥٨
﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ ﴾	٤٨	٤٨، ٤٩
﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾	٦٧	٤٨، ٥٨
﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾	٨٣	١٢١
﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ ﴾	٨٧	١٢١
سورة الرعد		
﴿ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾	٣٠	١٢٦، ١٤٢
سورة إبراهيم		
﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾	١١	١٦
﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾	١٢	١٨، ٣٩
سورة الحجر		
﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾	٢١	١١٨
﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾	٥٦	١٢٠
سورة النحل		
﴿ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾	٣٥	٩٣
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾	٥٣	١٣٠
﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾	١٢٥	١٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإسراء		
﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾	٣١	٣٥
﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾	١٠٠	١٣٥
سورة الكهف		
﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾	١٣	٥٠
﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾	١٩	٥٠
﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾	٢٨	١٤١
﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ ﴾	٣٤ ـ ٣٩	١٣٧
﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾	٤٢ ـ ٤٤	١٣٧
﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾	٦٢	٤٩
سورة مريم		
﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾	٢٥، ٢٦	٥٠
﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾	٦٧	١٣٠
سورة طه		
﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾	٧	١٢٦
﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾	٤٦	٧٨
﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ ﴾	٩٧، ٩٨	١٤٠
سورة الأنبياء		
﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ ﴾	٨٠	٤٩
﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾	٨٣ ـ ٨٨	١٢٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النور		
﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ ﴾	٣٦، ٣٧	٥١
سورة الفرقان		
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾	٥٨	١٥، ١٢٦
﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا ﴾	٧٤	٣٨
سورة الشعراء		
﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾	٥٤ ـ ٥٦	٧٧
﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾	٦١	٧٧، ١١٠
﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾	٦٢	٧٧، ٧٨، ٧٩، ١١٠
﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ ﴾	٦٣ ـ ٦٧	٧٨
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾	٢١٧ ـ ٢٢٠	١٥، ١١٥، ١٢٦
سورة النمل		
﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾	٧٩	١٥
سورة القصص		
﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ ﴾	٧	١٢٨
﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾	٢٠	٥٨
﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾	٢٩	٤٩
﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾	٧٨	١٣١
﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	٨١	١٣١
﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾	٨٨	١٢٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا ﴾	١٧	٢٠، ١٣٨
﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا ﴾	٤٠	١٣٥
﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾	٦٠	٣٤
سورة الروم		
﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٤٧	١١٧
سورة الأحزاب		
﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾	٣	٤، ١٥
﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾	٤	١٤٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ ﴾	٩	٨٠
﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾	١٠، ١١	٨٠
﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾	١٢	١١٤
﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾	٢٢	١١٤
﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾	٢٣	١١٤
﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ ﴾	٢٥	٨٠
﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾	٤٨	١٥
سورة سبأ		
﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۞ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ ﴾	١٠، ١١	٤٩
﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾	٣٩	٣٤

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فاطر		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾	٥	١٤٢
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾	١٠	١١٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾	١٥	١٣١
سورة يس		
﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾	٨٢	١٣٤
سورة الصافات		
﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾	١٠٠	٣٧
سورة الزمر		
﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾	٣٦	١٩
سورة غافر		
﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾	٦٠	١١٨
سورة فصلت		
﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾	٣٠	٣٨
سورة الشورى		
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ ﴾	٥٢، ٥٣	٩
سورة الدخان		
﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾	٢٣	٤٩، ٥٧، ٧٧
سورة الجاثية		
﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا ﴾	١٨، ١٩	٣٩

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحقاف		
﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾	١٣	٣٨
سورة الذاريات		
﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾	٢٢، ٢٣	١٢٨
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٦٩
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾	٥٨	١٢٨
سورة النجم		
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾	٢٩، ٣٠	١٤١
سورة القمر		
﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾	١٠ ـ ١٤	٤٨
سورة الممتحنة		
﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾	٤	١٨، ١٤٤
﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ﴾	٥	١٤٤
سورة الجمعة		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾	٩	٥١، ٦٣
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	١٠	٥١، ٥٣
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	٧	٢٠، ٣٥
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨	١١٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾	٩	٨٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التغابن		
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾	١٣	١٧
سورة الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾	٢	١٩
﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾	٣	٤، ١٩، ١٣٣
سورة الملك		
﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾	١٤	١٢٧
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾	١٥	٥١، ٥٨
﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾	٢٩	١٦، ١٢٦
سورة المزمل		
﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾	٩	١٦
﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾	٢٠	٦٣
سورة الإنسان		
﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾	١، ٢	١٣٠
سورة الطارق		
﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۞ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾	١٥ ـ ١٧	٣٩
سورة العلق		
﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾	٦، ٧	١٠٨، ١٣١

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

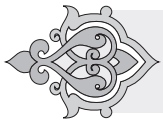

غير مرخصة للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
احصوا لي كم يلفظ بالإسلام	٤٧
إذا وقع ـ أي الطاعون ـ بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه	٨٩
إذا ولج الرجل بيته، فليقل: اللهمَّ أسألك خير المَوْلِج، وخير المَخْرَج	٢١
اعْقِلْها وتوكَّل	٥، ٤٣، ٤٦، ٥٦، ٥٧، ٥٨
أغلق بابك	٥٧
اكتبوا لي مَن يلفظ بالإسلام من الناس	٤٧
أكثروا من ذكر هاذم اللَّذات	١٠٨
اكوُوه وارضِفوه	٩٥
اللهم إنَّا نعوذ بك أن نُشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه	٧
اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم	٣١
اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا	١٤١
اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وإليك أنبتُ	٢٠
اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اللهم اهزمهم	٨٠
إنَّ الله ﷻ بقسطه وعدله جعل الفرح والرَّوْح في الرضا واليقين	١٢٠
إن الله ﷻ لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء، علِمه مَن علمه، وجهله مَن جهله	٩٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ الله لا يصنع بشقاء أختك شيئًا، فلتركب	١٠٣
إنَّ الله لغنيٌّ عن مشيه، فليركب	١٠٣
إنَّ الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء، علمه مَن علمه وجهله مَن جهله	٩٠
إنَّ رسول الله ﷺ كان يَسْقَمُ عند آخر عمره	١٠٠
إن رسول الله نهى عن الكي	٨٨
إن قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فَسِيلة	٤٦
أن النبي بعث إلى أُبَي بن كعب طبيبًا	٩٤
أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة	٩٥
أن النبي كواه في أكحله	٩٥
إنَّك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس	٥٧
ث	
ثلاث مهلكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه	١٣٦
ح	
حسبنا الله ونعم الوكيل	١١١
د	
دعواتُ المكروب: اللهمَّ رحمتَك أرجُو، فلا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عَيْنٍ	١٣٢
الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة	٣٧
ر	
رمي سعد بن معاذ في أكحله، قال: «فحسمه النبي ﷺ بيده بمشقص	٩٥
س	
السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب أنَّهم لا يَسْتَرْقُون	٩٧، ١٠٢
سلوا الله العفو والعافية، فإنَّ أحدًا لم يُعْطَ بعد اليقين خيرًا من العافية	٣٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ع	
عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فجعل النبيُّ والنبيَّان يمرُّون معهم الرَّهْط	٥
ف	
فإنَّك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علَّام الغيوب	٣١
فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد	٨٩
ك	
كنتُ أرعى غنمًا لأهل مكة بالقراريط	٦١
كيف بك إذا ألبسك الله سوارَيْ كِسْرى؟	١٢٢
ل	
لا عدوى	٨٩
لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكَّلون	٩٧
لا يوردنَّ مُمْرض على مُصِحّ	٨٩
لأنصرنَّكِ ولو بعدَ حين	٤١
لكلِّ داء دواء، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله ﷻ	٩٠، ٩١، ٩٤
لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطيرَ	٥، ٢١، ٤٦، ٦٣، ٧٤
ليس من البر الصيام في السفر	١٠٣
م	
ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده	٤٦
ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزل له شفاء	٩٠
ما يمنعُكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به؟! أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ	١٣٢
مَن اكتوى أو استرقى فقد برئ من التَّوكُّل	٨٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة	٨٤
مَن سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتَّقِ الله	١١٢
مَن قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله، توكَّلت على الله	٢١
مَنْ يحرسني الليلة؟	٥٧
ن	
نحن معاشر الأنبياء أشدُّ الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل	١٠٧
نِعْمَ المال الصالح مع الرجل الصالح	٥٧
نعم، يا عباد الله، تداوَوْا، فإنَّ الله ﷻ لم يضع داءً إلا وضع له شفاء	٩٠
هـ	
هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكّلون	٢٠، ٨٧
هي من قدر الله	٧٥، ٩١
و	
واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّنِي به	٣١
والذي نفسي بيده، لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر	١٢٢
وإن كان في شيء من أدويتكم خير، ففي شرطة مِحْجَم	٨٨
وعافني فيمن عافيت	٣٧
وما أحب أن أكتوي، وفي لفظ آخر: وأنا أنهى أُمتي عن الكيّ	٩٦
وماذا أبقيتَ لأهلك وعيالك؟	٣٦
ي	
يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟	٧٩
يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم	١٣٤
اليد العليا خير من اليد السفلى	٥٤

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

• التَّوكُّل ١١

❖ الفصل الأول: فضل التَّوكُّل ١٣

الحاجة إلى التَّوكُّل ١٣

فضل التَّوكُّل في القرآن ١٤

أمر الله رسوله بالتَّوكُّل ١٥

أمر المؤمنين عامَّة بالتَّوكُّل ١٦

التَّوكُّل خُلق الرسل جميعًا ١٨

القرآن يبين آثار التَّوكُّل ١٩

فضل التَّوكُّل في السُّنَّة ٢٠

❖ الفصل الثاني: حقيقة التَّوكُّل ٢٢

عبارات القوم في بيان حقيقة التَّوكُّل ٢٢

QaradawiBooks.com

حقيقة التَّوكُّل كما يشرحها الغزالي ٢٦
كلام ابن القيِّم في حقيقة التَّوكُّل ودرجاته ٢٨
❖**الفصل الثالث: مجال التَّوكُّـل ومتعلقه** **٣٤**
التَّوكُّل في أمر الرزق ٣٤
جريمة الجاهلية المعاصرة ٣٥
التَّوكُّل في أمور الدنيا الأخرى ٣٧
التَّوكُّل في أمر الدين ٣٨
توكُّل الأنبياء وورثتهم في إقامة الدين ٣٩
سعة منزلة التَّوكُّل ٤٢
❖**الفصل الرابع: التَّوكُّل ورعاية الأسباب** **٤٣**
حكايات بعض الصُّوفِيَّة في إهمال الأسباب ٤٤
مخالفة هذه الحكايات للسُّنَّة الصحيحة ٤٥
الأخذ بالأسباب سُنَّة من سنن الأنبياء عامة ٤٧
القرآن يأمر برعاية الأسباب ٥٠
هَدْي الصحابة والتابعين في مراعاة الأسباب ٥٢
المحقِّقون يردُّون على معطّلي الأسباب ٥٤
ردُّ ابن الجوزي على المعطِّلين للأسباب ٥٦
ابن القيِّم يرد على نفاة الأسباب، وصلتها بالتَّوكُّل ٦٧
عمارة الأرض مقصد شرعي وضرورة للأمة ٦٩
إشاعة السلبيَّة في دنيا المسلمين ٧٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

استدلالات مردودة ٧٣
متى تُذَم الأسباب؟ ٧٦
ما تعجز عنه الأسباب تُكمله للمتوكِّل القدرةُ الإلهيَّة ٧٧
الناس والأسباب في عصرنا ٨١
معطلو الأسباب ٨١
المعتمدون على الأسباب دون مُسبِّبها ٨١
المستعينون بالأسباب على المعاصي ٨٢
من جمعوا بين السبب والتَّوكُّل على المسبب ٨٥
❖ **الفصل الخامس: التَّداوي والتَّوكُّل** ٨٧
الطِّبُّ والتَّدَاوي بين الصُّوفِيَّة والفقهاء ٨٧
مشروعية الكيّ في السُّنَّة الصحيحة ٩٤
ترك بعض السلف للتداوي وتفسيره ١٠٣
كلام الغزالي في «الإحياء» ١٠٣
الأسباب الصارفة عن التَّداوي ١٠٥
❖ **الفصل السادس: من ثمار التَّوكُّل على الله** ١١٠
السكينة والطمأنينة ١١٠
القوَّة ١١١
العِزَّة ١١٥
الرضا ١١٩
الأمل ١٢٠

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الفصل السابع: من بواعث التَّوكُّـل** **١٢٤**

١ ـ معرفة الله بأسمائه الحسنى ١٢٤

٢ ـ الثقة بالله تعالى ١٢٧

٣ ـ معرفة الإنسان بنفسه وعجزه ١٢٩

٤ ـ المعرفة بفضل التَّوكُّل وأحوال المتوكِّلين ومعايشتهم ١٣٢

❖ **الفصل الثامن: عوائـق التَّوكُّـل** **١٣٤**

١ ـ الجهل بمقام الله ١٣٤

٢ ـ الغرور بالنفس ١٣٦

٣ ـ الركون إلى الخلق ١٣٨

٤ ـ حبُّ الدنيا والاغترار بها ١٤١

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **١٤٧**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **١٥٩**

• **فهرس الموضوعات** **١٦٣**

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس كتب المجلد

٧٧ ـ الحياة الرَّبَّانيَّة والعِلم ٥

٧٨ ـ النيَّة والإخلاص ٢١٧

٧٩ ـ التَّـوكُّـل ٣٧٩

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية